35

جُبران خليل جُبران

عَرائِسُ المُروج

تَقديم وَتعريف

د. جَميل جبر

ضَبط وَشرح وَمُداخَلة

سامي ج. الخوري

دار الجيل

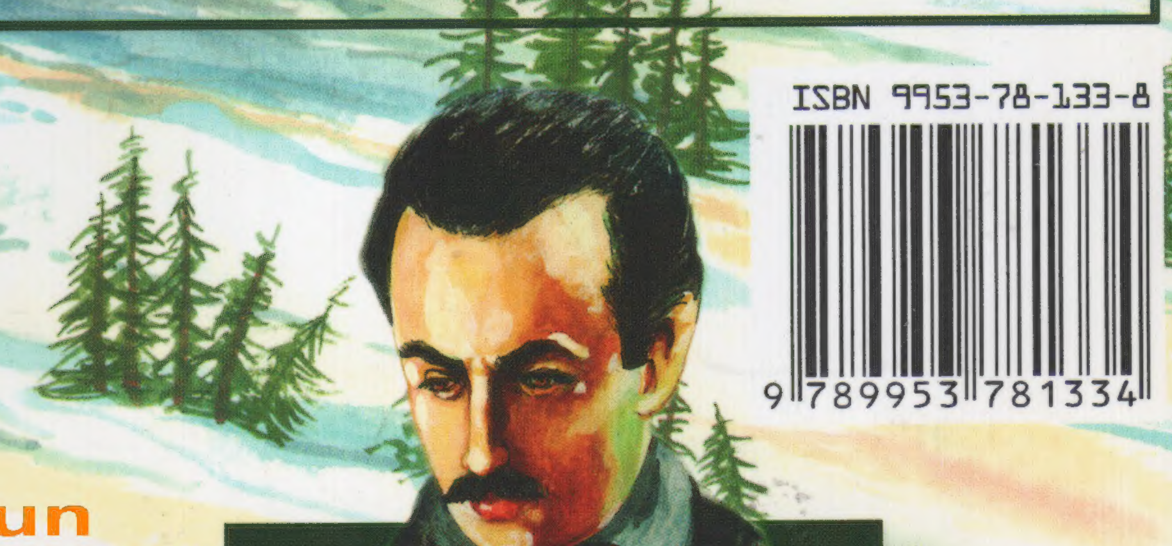
تُعتبر مؤلفات جبران، سواء العربية منها أو المعرَّبة، من الكتب التي كلّما قرأتَها وجدتَ فيها شيئاً جديداً. تستهوي المبتدئ الناشئ لمَا في أسلوبها من جدَّة وطرافة ونغم، كما تستهوي المثقَّف المتعلِّم لمَا في مضمونها من عمق وعرض لأعقد المشكلات الإنسانية. وكلّما رقي الفكر في سُلَّم النضوج وَجَد في هذه الكتب ما يترجم توقه ويعبِّر عن مكنوناته.

لذلك حرصنا على إخراج هذه الطبعة الجديدة من مؤلفات جبران لتكون في متناول المبتدئ الناشئ والمثقَّف المتعلِّم. فضبَطْنا النصوص ضبطاً شبه كامل، وفسَّرنا من المفردات والتعابير ما هو بحاجة إلى تفسير، وأضأنا غوامض التعابير والصور، وكشَفْنا بعض جوانب التفكير الجبراني عَبْرَ مداخلات سريعة مركَّزة، كما صدَّرنا كلَّ كتاب بموجز عن حياة جبران وتعريف مُسهب بالكتاب، وختمناه بمجموعة من الأسئلة من شأنها أن تخلق حواراً مبدعاً خلاَّقاً بين المعلِّم والطالب.

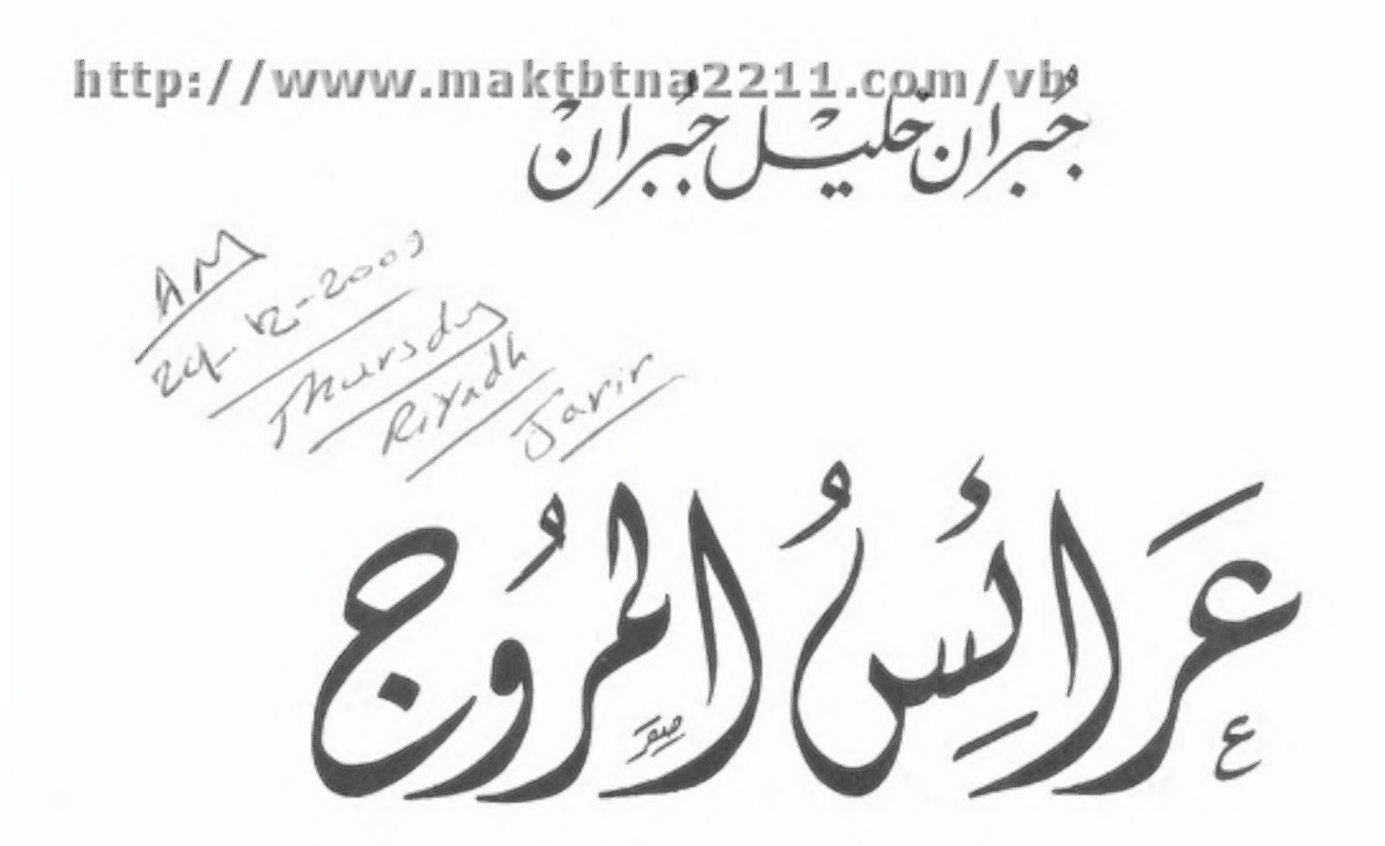
نأمل أن نكون قد أدَّينا للأدب اللبـ... ...اء، وللأدب العربي جزءاً من واجب في مسيرة رسالتنا الـ...

النـاشـر

ISBN 9953-78-133-8
9 789953 781334



جُبران خليل جُبران



عَرائِسُ المُرُوج

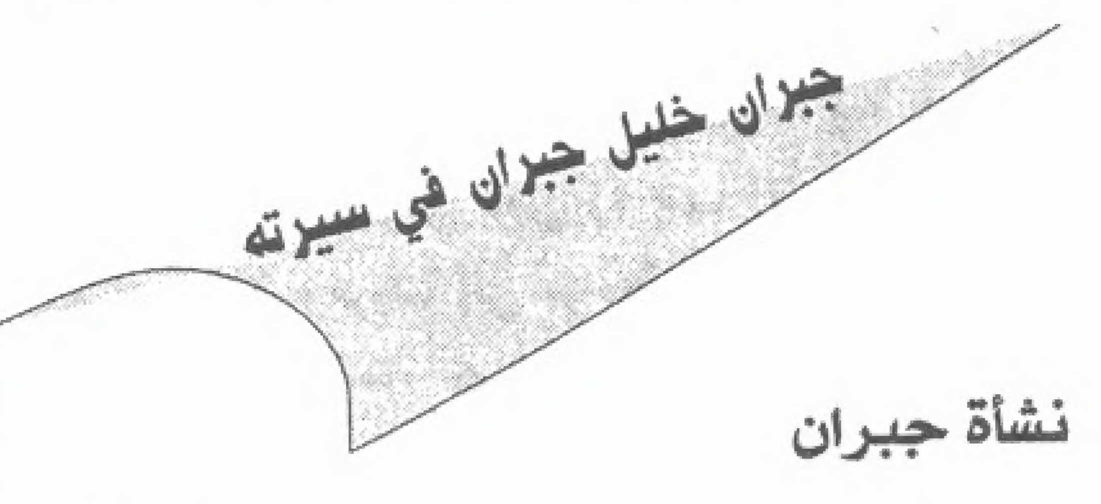
تَقديم وَتعريف

د. جَميل جَبر

ضَبط وَشرح وَمُداخلة

سَامي ج. الخوري

دَارُ الجيل
بَيروت



نشأة جبران

ولد جبران في بشرّي، في ظلال الأرز، صباح السادس من كانون الثاني سنة ١٨٨٣. ونشأ في كنف عائلة محافظة، يسمع شتاءً، حول الموقد، حكايات البطولة، والأساطير على إيقاع العواصف، ويسرح صيفاً مع الرعاة في الغاب.

في الخامسة من عمره دخل مدرسة إليشاع، «مدرسة تحت السنديانة» حيث تعلَّم مبادئ العربيَّة والفرنسيَّة والسريانيَّة. وفي أيام العطلة تردَّد إلى مركز رهبان طليان ينعم نظره عندهم بروائع عصر النهضة الإيطالية، فيحاول نسخها على هواه.

عُرف في المدرسة بقوة الشخصية وحدَّة الذكاء، والنزعة إلى الحلم، والتمرُّد على النظام.

كان والده جابياً لضريبة الماعز في الجرود، اتُّهم بالاختلاس فقُبض عليه. وأحدثت هذه الحادثة صدمة عنيفة في نفس الفتى الشديد الطموح.

دفعاً للعار اضطرت الأمّ، كاملة رحمه، أن تسافر مع ابنها بطرس (من زوجها الأوّل) وجبران وابنتيها سلطانة ومريانا إلى بوسطن، حيث لها بعض الأنسباء. وهناك دخل جبران مدرسة شعبيَّة تعلَّم فيها أصول الإنكليزية، فاسترعى اهتمام معلمته الأميركية باجتهاده وبميله إلى الرسم، فأوصت به فريد هولاند داي الذي كان يرعى بعنايته الموهوبين فنيًّا، فساعده هذا على دراسة تقنيَّة الرسم، ومكَّنه من مواصلة تعلّم الإنكليزية.

في معهد الحكمة

رغم التفوّق الذي أحرزه جبران في درس الإنكليزيَّة والرسم، ظلَّ يحنّ إلى لبنان، مربع طفولته، ويتوق إلى إكمال تحصيله في العربيَّة، لغة بلاده، فتحقَّق حلمه بعد سنوات ثلاث.

في لبنان سجَّل جبران اسمه في معهد «الحكمة» في بيروت، وكان بين رفقائه النحّات يوسف الحويّك. وهناك وسّع معرفته بلغة الضاد طوال ثلاثة أعوام، اضطر بعدها إلى الرجوع إلى بوسطن.

في بوسطن بمواجهة الموت

في بوسطن شهد جبران فجيعة أمّه بأخته سلطانة ومرضها هي وبطرس بالسلّ. وكانت تعزّيه في مأساته فتاة شاعرة أحبّها قبل أن يعود إلى لبنان، هي جوزفين بيبودي.

لما مات أخوه وماتت بعده أمّه، استولى الحزن واليأس عليه فعبّر عن ضراوة ألمه بهذه العبارة: «فقدت ينبوع الحنوّ والرأفة والغفران والصدر الذي أسند إليه رأسي واليد التي تباركني وتحرسني».

لكنّ قساوة القدر ما لبثت أن حفزت جبران على الانطلاق في عالم التصوير، فأقام معرضه الأوّل بنجاح، والتقى امرأة كان لها دورها الحاسم في توجيهه الأدبيّ والفنيّ هي ماري هاسكل. فقد أعجبت هذه برسومه إعجاباً جعلها تدعوه إلى عرضها في المدرسة التي كانت تديرها.

غابت عنه جوزفين فحلّت فتاة أخرى محلّها في قلبه هي إملي ميتشل، (ميشلين)، المدرّسة بإمرة ماري هاسكل التي كانت تكبر جبران بعشر سنوات. لكن ميشلين لم تدم طويلاً عروس أحلامه.

البداية الأدبية

في مطلع سنة ١٩٠٤ التقى جبران أمين الغريّب الذي كان قد أنشأ جريدة «المهاجر» فأطلعه على بعض خواطره ورسومه فأعجب بها هذا إعجاباً شديداً وعرض أن ينشرها. وفي آذار من تلك السنة ظهر أوّل مقال لجبران عنوانه «رؤيا» كان له صداه البليغ لدى القرّاء من حيث طرافة النهج والخيال المجنّح.

وتشجع جبران فنشر سلسلة مقالات وجدانيّة في «المهاجر» تحت عنوان «رسائل النار»، ظهر معظمها فيما بعد في «دمعة وابتسامة». ثم أصدر بعد سنة مقالاً طويلاً عنوانه «الموسيقى».

مضى جبران يكتب ويرسم لا يكلّ ولا يملّ وشعاره: «لا أريد أن أكتب اسمي بماء على سفر الوجود بل بأحرف من نار».

استهواه الفن القصصيّ فأصدر مجموعتين، الأولى «عرائس المروج»، والثانية «الأرواح المتمرّدة»، عبّر فيهما عن ثورته على المجتمع الإقطاعيّ المتحجّر المستعبد، وعن سموّ الحبّ الذي يأبى أن تُقيّده تقاليد عقيمة في نظره.

في هذه الأثناء أقام معرضاً عزّز شهرته كرسّام في أوساط بوسطن، لكنّه كان يطمح إلى شهرة عالمية، فأعرب عن رغبته في دراسة أصول الرسم في باريس إلى ماري هاسكل التي كانت تسخو عليه بحنانها، ولا تضنّ عليه بالمساعدة الماديّة، فلبّت مشيئته، وإذا هو سنة ١٩٠٨ في العاصمة الفرنسية يعلّل النفس بالآمال العظيمة.

في باريس

كانت باريس المركز العالمي الأوّل للفنون الجميلة عهدذاك، يجيئها الرسّامون من كلّ بلد، ليعرضوا نتاجهم في قاعاتها، والناشئون لاستكمال تحصيلهم الفنيّ في جامعاتها.

في مدينة النور تردّد جبران إلى أكاديمية جوليان، وإلى المتاحف والمعارض والمكتبات والتقى رفيقه في الدراسة النحّات يوسف الحويّك.

كانت المرحلة الباريسية محطّة بارزة في حياته فتحت له آفاقاً جديدة. لكن نجاحه الباهر في العاصمة الفرنسية لم ينسه لبنان، فظلّ يحنّ إليه ويتذكّره فيرى في أحلامه «الشمس طالعة من وراء

صنَّين، أو جانحة إلى الغروب وقد وشَّحت الطلولَ والأوديةَ بنقاب أحمر كأنها تذرف على فراق لبنان الدماء بدلاً من الدموع».

كان لكتابات جبران أثرها البارز في أوساط الناشئة اللبنانية التوّاقة إلى التحرُّر والإبداع الجماليّ. إلاّ أنها أثارت عليه نقمة المحافظينَ ورجال الدين والإقطاع.

بعد أن قضى جبران سنتين كاملتين في باريس أراد أن يكلِّل إقامته فيها بالاشتراك في المعرض الذي تنظِّمه في الربيع، الجمعيّة الوطنية للفنون الجميلة. فقدَّم بعض لوحاته فاختيرت إحداها، وكانت نشوة الفنّان تتجاوز كلَّ وصف.

في نيويورك

بعد باريس بدت بوسطن لجبران ضيِّقة الآفاق. وكان أمين الريحاني الذي التقاه في باريس وقضى معه شهراً في لندن، قد دعاه إلى نيويورك. تردَّد في البدء لأن في بوسطن أخته مريانا الوحيدة الباقية من عائلته، ولأنَّ فيها ماري هاسكل وقد تحوَّلت الصداقة بينهما إلى حبّ. لكنه استطاع أن يطمئن الحبيبتين بأنه إن ابتعد عنهما بجسده فإنه سيبقى بقربهما قلباً وروحاً، والمسافة بين بوسطن ونيويورك ليست بعيدة.

وقُيِّض لجبران أن يقضي منذ سنة ١٩١١ كل حياته في نيويورك.

في سنة ١٩١٢ نشر جبران روايته «الأجنحة المتكسرة»، التي انطوت على أصداء خفقات قلبه حين تعرَّف في بشري وهو يدرس في معهد «الحكمة» إلى حلا الضاهر. وأهدى هذا الكتاب عربون وفاء إلى ماري هاسكل «التي تحدِّق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة، وتسمع نغمة الروح الكلّي من وراء ضجيج العميان وصراخهم».

كانت هذه الرواية فاتحة علاقة حميمة، ولو من بعيد، بين جبران ومي زيادة التي أنشأت في القاهرة ندوة أدبيَّة جمعت كبار الكتَّاب في مصر.

رغم الحياة الأدبيَّة والفنيَّة الخصبة في نيويورك، تذمَّر جبران من «داء الملل الذي يميت» فوصف في رسائله إلى الخلّان بأنه في مدينة تتحرَّك على دواليب يكاد يختنق. لكنَّ تعرُّفه إلى نيتشه في كتابه «هكذا تكلَّم زرادشت» منحه بعض العزاء، فقد وجد في داعية السوبرمان (الإنسان المتفوِّق) هادياً له لإعلان ثورته على المجتمع. وكان من ثمار تأثره بالفيلسوف

الألماني كتابه «المجنون» الذي كتبه بالإنكليزية بمساعدة ماري هاسكل، وكانت هذه تلازمه كرفيقة عمر، ولم ينشره إلا بعد الحرب.

وكان لمعرض جبران في نيويورك الذي لقي نجاحاً كبيراً فعله الحاسم في إطلاقه كرسّام عظيم. لقد قدرت المجلات النقديَّة الكبرى «رؤاه الرمزية الضبابيَّة» التي بدت في خلفيّاتها ظلال من وحي وليم بلايك، وكان جبران يهواه شاعراً وفنّاناً.

في الحرب العالمية

نشبت الحرب العالمية الأولى فدمَّرت أوروبة، لكنها في بداياتها لم تُقلق العالم الجديد إلا بمقدار. إلا أن الكارثة التي حلَّت بلبنان فجوَّعت أبناءه وشرَّدتهم وقضت على الآلاف منهم نغَّصت عيش جبران، فعبَّر في سلسلة مقالات عن هول الفاجعة وأثرها في أعماقه، ولم يكتفِ بالكتابة بل ساهم مع بعض إخوانه الأدباء في إنشاء لجنة إغاثة للمنكوبين خفَّفت من وطأة المأساة على اللبنانيين.

خلال هذه الحرب الطاحنة تأصَّلت علاقة جبران بالأدباء اللبنانيين والسوريين المعروفين في نيويورك،

فعقدوا العزم على إنشاء جمعيَّة أدبيَّة تنهض بالأدب العربي الراكد إلى المستوى العالميّ، واستمرت هذه الاتصالات بعد الهدنة، فانتهت إلى تأسيس «الرابطة القلمية». وفي هذه الأثناء أصدر جبران «المجنون»، و«العواصف»، و«المواكب»، و«السابق».

الرابطة القلميَّة

في العشرين من نيسان سنة ١٩٢٠ عقد بعض الأدباء المهجريين اجتماعاً، وقرروا إنشاء رابطة تنشل الأدب العربي «من وهدة الخمول والتقليد إلى حيث يُصبح قوّة فعّالة في حياة الأمّة».

وبعد أسبوع أُعلنت «الرابطة القلمية» برئاسة جبران. وكان سائر أعضائها المؤسّسين: ميخائيل نعيمة، نسيب عريضة، رشيد أيوب، ندرة حدّاد، وليم كستفليس، إيليا أبو ماضي، ورشيد الباحوط.

كانت هذه الجمعية مركز انطلاق الأدب المهجريّ كردَّة فعل على الأدب المحنّط، وقد تميَّز بالنزعة الإنسانية والأسلوب الحديث الذي يواكب تطوُّر العصر.

لم يصرف اهتمام جبران الشديد بالرابطة القلمية عن النتاج الشخصي، بل حفّزه على الإبداع فمضى يكتب رائعته «النبي»، الذي قال عنه: «إنه ديانتي وأقدس قدسيّات حياتي. أتمنى لو أقرأه في إحدى الكنائس». لقد شاءه عصارة اختبار حياة مثالية لطالما سما إليها. «أريد أن أحيا الحقيقة. بدلاً عن الكتابة عن النار أفضّل أن أكون جمرة تتأجّج. أريد أن أكون معلّماً. وبما أني مستوحد أريد التحدُث إلى جميع المستوحدين». هذا ما أعلنه جبران إلى ماري هاسكل.

ومنذ ذلك الحين راح جبران في كتاباته وأعماله يسلك سبيل الأنبياء. إلاّ أن المرض لازمه كطيفه فقضّ عليه مضجعه لكنه ما استسلم لمشيئة القدر.

في صيف سنة ١٩٢٣ ظهرت رائعة جبران التي قالت عنها ماري هاسكل: «سنفتحها في ظلماتنا للاهتداء إلى أنفسنا ولإيجاد السماء والأرض في داخلنا». واعتبر الأميركيون «النبي» إنجيلاً جديداً.

النهاية

استمرت علاقة جبران الكتابيّة بمي زيادة، لكن علاقته بماري هاسكل فترت إلى حدٍّ ما بعد أن تزوجت سنة ١٩٢٦.

ومنذ ذلك العام سيطر هاجس الموت على جبران. وفي هذه المرحلة القاتمة أصدر «يسوع ابن الإنسان» الذي أراده برزخاً إلى كتاب أروع يكمل «النبي».

رغم العلَّة المزمنة استمرَّ جبران يكتب ويرسم، فأنجز «آلهة الأرض». ومضى ينقح «التائه»، ويباشر كتابة «حديقة النبي» بمعاونة بربارة يونغ.

لكنّ للجسم طاقة محدودة استنفدها جبران في عمله المرهق، فلفظ أنفاسه الأخيرة في ١٠ نيسان سنة ١٩٣١، ونقل جثمانه في صيف ذلك العام إلى مسقط رأسه بشري، بناء على وصيته، ورقد جبران رقدته الأخيرة في صومعة دير مار سركيس المطلّة على أروع ما تقع عليه العين في الوادي المقدَّس.



جبران في مدرسة الحكمة ـ بيروت



منزل جبران في بشري

قبر جبران ومتحفه في غابة مار سركيس



عرائس المروج

عرض

«عرائس المروج» هي الكتاب الثاني لجبران، أصدرها بعد «الموسيقى» سنة ١٩٠٦، وفيها ثلاث أقاصيص واقعيّة عناوينها: رماد الأجيال والنار الخالدة، مرتا البانية، ويوحنّا المجنون.

نشر جبران هذه الأقاصيص في جريدة «المهاجر»، حين كان يعاني اضطراباً نفسيّاً شديداً بسبب حزنه على أخته وأمه وشقيقه وحالته البائسة. ثم جمعها في كتاب قدّم له صاحب «المهاجر» أمين الغريّب. وأهداها إلى النجمة التي بدأت تبدّد ظلمته الباطنية إلى ماري هاسكل بهذه العبارة المؤثرة على النسخة الأولى:

«مع حبّ طفل قويّ إلى ماري اليزابت هاسكل».

ولم يشأ أن يكون الإهداء واضحاً بالنسبة للقارئ فجاء هكذا:

«إلى التي تحدّق إلى الشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة، وتسمع نغمة الروح».

وكانت ماري هاسكل، وهي تكبر جبران بعشر سنوات، بمثابة أمّ له. لذا جاء في إهدائه الخاصّ «مع حبّ طفل».

ما هي موضوعات الكتاب؟

موضوع الأولى **«رماد الأجيال والنار الخالدة»**: يدور حول ابن كاهن قديم عاش في بعلبك مدينة الشمس، في خريف سنة ١١٦ قبل الميلاد، وفَقَدَ حبيبته التي أحبّها حبّاً يقرب من العبادة، فهام على وجهه يتعثر في خيبته. إلاّ أن حبّه لم يمت بموت العشيقة، لأنه خالد، وهذا ما ترمز إليه النار الخالدة في العنوان. لقد كَمَنَ الحبّ كما النار تحت الرماد، رماد الأجيال ليُبعَث حيّاً سنة ١٨٩٠. وكيف يموت الحبّ، في نظر جبران، وهو يرتكز إلى أحلام وعواطف «تبقى ببقاء الروح الكليّ الخالد. تغيب ثم تشرق كالشمس والقمر».

عاد الحبيبان إلى الحياة، إلى بعلبك، بعد أن تقمّصا. هو تقمّص غنّاماً وهي تقمّصت قرويَّة. لقد أعادت عشتروت ربّة الجمال، روحيهما إلى الحياة ليتذوّقا «ملذّات الحبّ ومجد الشبيبة» ما طاب لهما.

العاشق الأوّل هو ناثان ابن الكاهن حيرام وقد تقمّص علي الحسيني.

موضوع الثانية **«مرتا البانية»**: فتاة قرويّة يتيمة، بسيطة القلب، رقيقة الحال، أغواها شاب جميل الطلعة، أنيق الهندام، التقاها مصادفة. كانت يومذاك في السادسة عشرة من عمرها، جالسة قرب العين تتأمل أوراق الخريف المتناثرة، وتتطلع إلى الزهور الذابلة.

ترجّل الشاب عن حصانه لمّا رآها وطلب إليها أن تدلّه إلى طريق الساحل، فلم تستطع تلبية طلبه فاحمرّ وجهها خجلاً. وشعر كلّ منهما بشعور شديد يستولي عليه.

ولم تعد مرتا ذلك المساء إلى منزل وليّها، ولم يَرها أحد في القرية بعد ذلك اليوم.

استسلمت مرتا إلى ذلك الفتى استسلاماً أعمى،

فلما حملت منه نبذها وكأن شيئاً لم يكن، فاضطرت أن تتردى في هاوية البغاء لكي تعيل طفلها.

لمّا عاد المؤلف من بشري إلى بيروت حيث كان يدرس في معهد «الحكمة»، التقى صبياً في ثياب رثة يعرض عليه باقة زهر، فأشفق عليه وراح يحدّثه ويسأله عن أبويه، فعلم أن أمه مريضة.

مضى الكاتب مع الصبيّ إلى أمّه القاطنة في أحد الأزقة القذرة. وراح يؤاسي تلك المسكينة، ضحية الغدر، ففتحت له قلبها وروت له حكايتها مع ذلك «الحيوان المختبئ في الإنسان».

وماتت مرتا فلم يشيِّعها إلى القبر إلا ابنها وفتى آخر هو راوي القصة.

إن بطلة القصة الواقعية هذه عرضها جبران حقاً، وقد روى يوسف الحويك النحات المعروف أنه كان مع جبران في مقهى «كوكب الشرق» في بيروت يوم رأيا طفلاً يبيع أزهاراً لكي لا يتسوّل، فإذا بجبران يستنطقه ليعلم ما الذي حمله على هذا العمل الشاقّ، وهو يكاد يكون في مرحلة الطفولة، فأثار شفقته وجعله يمضي معه إلى زيارة أمه البائسة.

في رسالة وجّهها جبران إلى صديقه جميل المعلوف وصف هذه القصة بأنها «دمعة محرقة أثارتها أوجاع المرأة الساقطة التي تتبع الرجل قبل أن تسمع نداء قلبه وقبل أن تشعر نفسها باهتزازات الحبّ الإلهيّ التي تُحدِثها ملاقاة النصف الحقيقي».

موضوع الأقصوصة الثالثة «**يوحنا المجنون**»: تروي حكاية راعٍ في شمال لبنان، دفعه الفضول إلى قراءة «العهد الجَديد» سرّاً على نور مسرجة ضعيفة، وكان بعض الكهنة ينهَوْن بسطاء القلوب عن قراءة هذا الكتاب المقدّس.

رأى يوحنا، بطل القصة، أن التعاليم التي قرأها في الإنجيل تختلف عن واقع الحياة، حيث الرحمة أملٌ يُرتجى، وحيث الإخاء الإنسانيّ وَهْمٌ خلاَّب.

فيما كان يوحنا يرعى أبقاره صرفه التأمل في ما قرأه في «العهد الجديد»، عن رقابة أبقاره التي ارتعت قليلاً من زرع الدير، فحبسها الرهبان عليه، وحبسوه، فراح يصرخ مستغيثاً بربّه:

«تعالَ ثانية يا يسوع واطرد باعة الدين من هياكلك».

واضطُرَّ والد يوحنا إلى أن يشهد أمام الحاكم أن ابنه مجنون، لكي يستطيع أن ينقذه من السجن، ثم خُيِّل له حقاً أنه معتوه.

وأصبح يوحنا موضع سخرية عارفيه من الفتيان والصبايا، لكنه استمر مؤمناً بالعدالة الإلهية.

وتنتهي القصة بهذا الحوار الذاتي:

«قولوا عني ما شئتم فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل، لكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس».

تحليل الكتاب

ثمّة أقصوصة لا واقعية هي الأولى، وأقصوصتان واقعيّتان هما الباقيتان.

في «رماد الأجيال والنار الخالدة» طَرْحٌ لنظرية جبران في التقمّص، التي اعتنقها عن بعض العقائد الهندية وعقائد الشرق الأقصى، ولا سيّما البوذيّة: إنها تفسير لعودة الإنسان، بل لعوداته إلى الحياة في سبيل استكمال ما لم يستطعه في حياته الأولى، تحقيقاً لأحلامه على دروب الألوهة.

من هنا تضمّنت الأقصوصة مرحلتين زمنيّتين تفصل بينهما مئات السنين، وتجمع بينهما شخصيّتان لهما الروحان عيناهما وإن اختلفت الأسماء والمظاهر.

وفي هذه الأقصوصة أيضاً تأكيد على وحدة الوجود، واعتبار الجسد مجرّد نقاب يحجب ألوهة الروح.

رجع المؤلف إلى القرآن الكريم تعزيزاً لنظرته في التقمص، لكنّه فسّره على هواه، كما استشهد ببوذا فأصاب الهدف.

قال بوذا: «كنا بالأمس في هذه الحياة، وقد جئنا الآن، وسوف نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة».

وانطلاقاً من هذا المبدأ أعاد جبران بطلَيه إلى حياة جديدة.

إن التماسك القصصي هشّ يفتقر إلى التسلسل المنطقي سواء في السرد أم في استخلاص المغزى.

وهناك بعض التناقض في سياق العرض، إذ البطل يختار حبيبته أولاً بمشيئة عشتروت، ثم لا

يلبث أن يحدّث هذه الآلهة كيف اختار هو نفسه، بدون مشيئتها على ما يظهر، عروس أحلامه.

في «مرتا البانية» يُفرغ جبران نقمته على مجتمع انحلّت فيه القيَم الخلقية، فإذا الغنيّ يستبيح هتك الأعراض إشباعاً لشهواته. لقد وقعت مرتا القروية البريئة ضحيّة ذئب، ولمّا افترسها أعرض عنها غير مبال، وكأن الفتاة سلعة ليس إلاّ. لكن مرتا وإن تدنّس جسدها، ظلّت نقيّة طاهرة بروحها. ظلّت نموذجاً صارخاً للفتاة المغلوبة على أمرها، التي تحمل وزر أخطائها وتجابه قدرها بجرأة. إنها لم تُمِت الجنين في أحشائها، بل أرضعته من حنانها طفلاً. ولمّا عجزت عن إعالته دفعته شريداً إلى دروب الحياة.

روى جبران في هذه الأقصوصة حدثاً عايشه بقالب شعري غنيّ بالصور، ولكن بتركيب بيانيّ ركيك. وهي كسائر أقاصيص جبران لا تنتهي إلى ذروة انفعالية تنطوي على مفاجأة حسب مفهوم الأقصوصة الأصولي.

أمّا الأقصوصة الأخيرة «يوحنا المجنون»، فقد

شرح جبران نفسه في رسالة موجّهة إلى جميل معلوف ما أراده منها، إذ قال:

«هي كلمة من رواية مُحزنة مستتبّة على مسرح الليالي، رواية حيّة بحياة الخضوع الأعمى، والاستبداد المميت، وقد نظرت فرأيت أن السُّبل التي اتّخذها الكتّاب فيما مضى لمقاتلة استبداد الاكليروس مضرّة بمبادئ أولئك، الذين يتّخذون احتقار التقاليد الدينيّة سبيلاً لإسقاط الكهّان القائمين بهذه التقاليد. إنه الخطأ بعينه لأن العاطفة الدينيّة شيء طبيعي في الإنسان. أمّا الاستبداد بواسطة التعاليم الدينية فليس من الأمور الطبيعية بل هو بعكسها. من أجل ذلك جعلت يوحنّا مُحبًّا ليسوع، مؤمناً بإنجيله، أميناً على تعاليمه».

إن حكاية يوحنا المجنون تُذكّر بحكاية اعتقال أسعد الشدياق في شمال لبنان الذي اتّهم بالكفر لأنه اعتنق المذهب البروتستنتي. أمّا الدير فهو دير إليشاع النبيّ، وما زال قائماً كما وصفه جبران.

لقد حاول جبران من خلال هذه الأقصوصة، أن يندّد برجال الدين، الذين لا يمارسون هم أنفسهم تعاليم المسيح الداعية إلى الرحمة والتضحية، فيما هم

يعلّمون الناس هذه المبادئ السامية في المدارس ويعظون بها في الهياكل.

لقد تطرّف جبران في ثورته الانفعالية، فكال كلّ رجال الأكليروس بمكيال واحد، وجعل الصالح بينهم ضحيّة الطالح.

ملاحظات عامّة

جبران كاتب ذاتيّ، قلّما استطاع أن يخرج من ذاتيّته ليدخل في ذاتيّة أبطال قصصه كما يفترض الفن القصصي. فمعظم شخوصه يتكلّمون بلسانه ويعبّرون عن آرائه هو. مرتا، في ثورتها على الغدر والخداع، ويوحنا في حملته على رجال الدين الذين يتنكّرون في أعمالهم لما يتعلّمون في الإنجيل ويبشّرون به، هما يستعيران صوت جبران، فأنى لمرتا اليتيمة التي لم تدخل مدرسة، وأنى لراعي البقر يوحنا تلك البلاغة في التعبير.

وأحياناً كثيرة يتجاوز جبران شخوص الأقاصيص ليعِظَ توجيهاً وتنديداً في نبرة إنجيليّة. أما الأسلوب فهو ثمرة فجّة، ذلك أن جبران وهو بعد في بداية عهده بالكتابة ما كان قد تمرّس بعد على أصول البيان والتركيب اللغوي السليم، وهو إلى هذا يردّد

التعابير عينها، ويكثر من النعوت التي تضعف طاقة الكلمة بدل أن تعزّزها. وهو يعتمد ألفاظاً لا تفي بقصده، وكأن بينه وبين القاموس عداوة.

من سيئات هذا الأسلوب، على طلاوته ورونق تشابيهه، تعاقب الجمل على المعنى الواحد، واستعمال الفاعل الثقيل الوقع بدل الفعل المجرد كما في هذه الأمثال:

«مزّقي هذا النقاب الحاجب كلّيتي واهدمي هذا البناء الساتر ألوهيَّتي».

«مسمع منصت لوحي المحبة، وعين مبصرة مجد السعادة»[1]

أهداف الكاتب

أهم الأهدف التي رامها جبران في هذا الكتاب، ما عدا عرض أفكاره في التقمص ووحدة الوجود هي:

ـ تقديس الطبيعة، على طريقة الرومنسيين، التي تتجلّى في أسمى مظاهرها في القرية رمز الطهر

(١) من «رماد الأجيال والنار الخالدة».

والعفوية والنقاء؛ وبالمقابل ذمّ المدينة، بؤرة الفساد الخلقي والاجتماعي: «نحن الذين صرفوا معظم العمر في المدن الآهلة، لا نعرف شيئاً عن معيشة سكّان القرى والمزارع المنزوية في لبنان، قد سرنا مع تيّار المدنيّة الحديثة حتى نسينا أو تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة، تلك الحياة التي إذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة في الربيع، مثقلة في الصيف، مستغلة في الخريف، مرتاحة في الشتاء، متشبهة بأمنا الطبيعة في كل أدوارها».

- تحذير الفتاة من مغبّة الانقياد إلى نزوة عابرة.

- تمجيد الحبّ والجمال والفضيلة





عرائس المروج

إهـــداء

إلى التي تحدق إلى الشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة وتسمع نغمة الروح.

جبران

رماد الأجيال والنار الخالدة

(١)

توطئة

(في خريف ١١٦ قبل الميلاد)

سَكَنَ الليلُ ورَقَدَتِ الحياةُ في مَدينَةِ الشَمسِ[1]
وَأُطفِئَتِ السُرُجُ في المَنازِلِ المُنتَشِرةِ حَولَ الهَياكلِ

(١) مدينة الشمس: هي بعلبك. مدينة لبنانية. مركز قضاء بعلبك في محافظة البقاع. يدل اسمها الحالي على أصلها الفينيقي. بعل البقاع هو دون شك الإله هداد. اشتهرت في العهد السلوقي وعرفت باسم هليوبوليس (مدينة الشمس). أصبحت مستعمرة رومانية في عهد أوغسطوس قيصر. منها انتشرت عبادة «جوبيتر البعلبكي» في أنحاء الإمبراطورية. شيّد فيها الرومان (١٣٨ ـ ٢١٧) على أنقاض المعبد القديم هياكل رائعة لا تزال بقاياها من الآيات كُرّست للآلهة الثلاثة جوبيتر ومركور وفينوس. من آثارها: هيكل مركور الرائع المعروف بهيكل باخوس، والأعمدة الستة.

العَظيمَةِ القَائِمَةِ بينَ أشجارِالزَيتُونِ والغَار[١]، وطَلَعَ القمرُ فانسَكَبَتْ أشعَّتُهُ على بَياضِ الأعمِدَةِ الرُخاميّةِ المُنتَصِبَةِ كالجَبابِرَةِ تَخفِرُ[٢] في هُدوءِ الليلِ مَذابحَ الآلِهةِ، وتَنظُرُ تيهاً[٣] وإعجَاباً نحوَ بُروجِ لبنان الجَالسةِ في الوَعْرِ[٤] على جَبهاتِ الروَابي البَعيدة.

في تلكَ الساعةِ المَملوءةِ بسِحْرِ الهُدُوءِ، المُوَحِّدَةِ بينَ أرواحِ النيامِ وأحلامِ اللانِهاية، جاءَ ناثانُ ابنُ الكَاهنِ حيرامَ ودخَلَ هَيكَلَ عَشتَروتَ[٥] حَامِلاً

---

(١) الغار: شجر طيِّب الرائحة من فصيلة الغاريات ينبت بريًا. ورقه دائم الاخضرار وخشبه صلبٌ وعَطِرٌ. يُستخرج من عنبيَّاته نوعٌ من الزيوت صالح كدهن ضد الأوجاع. كانوا قديماً يضفرون من أوراقه أكاليل للمنتصرين. وتستعملها ربَّات البيوت لتطييب نكهة الأكل.

(٢) تَخفِرُ: تحمي، تجيرُ، تحرسُ.

(٣) تيهاً: اختيالاً.

(٤) الوَعْر: المكان المخيف، والمكان الصعب.

(٥) عشتروت: ربّة الحبّ والخصب والحرب. معبودة الفينيقيين. امتدّت عبادتها من أوغاريت إلى المدن الفينيقية الأخرى. صيدا وصور وجبيل وبعلبك. قالوا فيها: «موقدة شعلة الحياة وحارسة الشبيبة». هي عشتار لدى سكان ما بين النهرين، =

مِشعَلاً، وبِيَدٍ مُرتَجفةٍ أنارَ المَسارجَ وأوقَدَ المَباخِرَ فتَصاعَدَتْ روائحُ المُرِّ واللُّبانِ، ووَشَّحتْ تِمثالَ المَعبودَةِ بنِقابٍ لطيفٍ يُشابِهُ بُرْقُعَ[1] الأماني المُحيطَ بالقلبِ البَشريّ، ثمّ رَكَعَ أمامَ المَذبحِ المُصَفَّحِ بِرُقُوقِ العَاجِ والذَهَبِ ورفَعَ يدَيْه ونظَرَ نحوَ العَلاءِ ومِن عينَيه الدموعُ تَستدرُ الدُموعَ، وبصوتٍ تَخفِضُهُ الغَصَّاتُ الأليمةُ وتقَطَعُهُ اللوعةُ القاسيةُ صرَخَ قائلاً: رُحماكِ يا عَشتروتُ العظيمة ـ رُحمَاكِ يا ربّةَ الحُبِّ والجَمالِ، ترأَفِي بي وأزيلي يدَ المَوتِ عن حَبيبتي التي اختارَتْها نَفسِي بمَشيئتِك... لقد نَبَتْ[2] أعَاصِيرُ[3] الأطبّاءِ ومسَاحيقُهم، وبَاطلاً ضاعَتْ تَعازِيمُ[4] الكُهّانِ

= وأفروديت عند اليونان، وفينوس عند الرومان. وقد أخذ اليونان والرومان عبادتها من الفينيقيين.

(١) بُرْقُع: حجاب. وهو في الأصل ما تستر به المرأة وجهها.

(٢) نَبَتْ: من فعل نَبَا. ونَبَا السيف عن مضروبه أي لم يُصِبْهُ.

(٣) أعاصير. ج إعصار. والإعصار: ريحٌ تهبُّ بشدّةٍ وترتفع بالغبار كالعمود. وهذه اللفظة غير مناسبة هنا لسياق الكلام.

(٤) مصدر عزّم. والصحيح عزائم جمع عزيمة أي رقية.

والعَرّافينَ، ولم يَبقَ لي غيرُ اسمِكِ المُقدّسِ عَوناً ومُساعِداً، فاستَجيبي تَضرُّعاتي، وانظُري انسِحاقَ قلبي وتَوجُّعَ عَواطِفي، وأبقِي شَطر نفسي[1] حَيًّا بجَانبي، لنَفرَحَ بأسرارِ مَحبّتِكِ ونَسعَدَ بجَمالِ الشَبيبةِ المُعلِنةِ خَفَايا مَجدِكِ.

مِن هذه الأعماقِ أصرُخُ إليكِ يا عَشتروتُ المقدَّسةُ. مِن وراءِ ظُلمةِ هذا الليلِ أستجيرُ[2] بِحَنانِكِ. فاسمَعيني أنا عبدُكِ ناثانُ ابنُ الكاهنِ حيرامَ الذي وَقَفَ عُمرَه على خِدمةِ مَذْبَحِكِ: قد أحببتُ صَبيّةً من بين الصَبايا وَاتّخَذْتُها رفيقةً فحَسدَتْنا عرائسُ الجَانِ[3] ونَفَثْنَ[4] في جَسَدِها اللطيفِ لُهاثَ عِلّةٍ غَريبةٍ، ثم بَعَثْنَ رسولَ المَنايا ليقودَها إلى مغاوِرِهِنَّ السِحريّةِ، وهو هو الآنَ رابِضٌ بقُربِ مَضجَعِها،

(١) شطر نفسي: حبيبتي.

(٢) استجير: استنجد، استغيث.

(٣) كانت العرب في الجاهلية تقول إن الجنية إذا تعشقت فتى من الإنس منعته من الزواج، وإن فعل سحرت عروسته أو أماتتها. وهذه الاعتقادات الشعرية ما برحت حية في بعض قرى لبنان.

(٤) نَفَثْنَ: نَفَخْنَ.

يُزَمْجِرُ كالنَمِرِ الجَائِعِ، مُخَيِّماً علَيها بِاجنِحَتِه السَوداءِ، مَادًّا مَقَابِضَهُ[1] الخَشِنَةَ ليَغتالَها من بينِ ضُلُوعي. من أجلِ ذلكَ جِئتُ إليكِ مُتذَلّلاً، فارحَميني وَأبقيها زهرةً لم تفرَحْ بَعدُ بجَمالِ صَيفِ الحياةِ، وطائراً لم يُكمِلْ تَغريدةَ مَسَرَّتِهِ لمجيءِ فَجرِ الشَبيبةِ. أنقذِيها من بينِ أظفارِ المَوتِ فنبتهجَ بأغَانيِ مَدائِحِكِ، مُقدِّمينَ المَحروقاتِ[2] لمَجدِ اسمِكِ، ناحِرينَ الضَحايا على مَذبحِكِ، مالئين بالخَمرِ القَديمَةِ والزيتِ المطيَّبِ آنيةَ خَزائِنِكِ، فَارِشِينَ بالوُرودِ واليَاسَمِينَ رُواقَ[3] هَيكَلِكِ، مُحرِقِينَ البَخُورَ والعُودَ الذَكيَّ الرائحةِ أمَامَ تِمثالِكِ. خَلِّصِينا يا ربَّةَ المُعجزاتِ ودَعِي المَحبَّةَ تَغلِبُ المَوتَ، فأنتِ ربَّةُ المَوتِ والمَحبَّةِ.

وسكتَ دقيقةً كانت فيها لوعتُهُ تَسيلُ دُموعاً

---

(١) مقابض: جمع مقبض وهو ما يقبض عليه بجمع الكفّ. والأصح: مخالب.

(٢) المحروقات: القرابين. ما يُتقرَّبُ به إلى الآلهة تبرُّكاً واستدراراً للنِعم والخير.

(٣) رواق الهيكل: مقدِّمه.

وتتصاعدُ تنهُّداً. ثمّ عادَ فقالَ: «أوّاهِ! لقد تضعضعَتْ أحلامِي يا عشتروتُ المُقدَّسةُ وذابَتْ حُشاشَتِي[1] وماتَ قَلبي في دَاخِلِي والتهبَتْ دُموعي في عَينَي، فأَحيِيني بالرأفةِ وأبقِي لي حَبيبتِي». ودخلَ إذ ذاكَ عَبدٌ من عَبيدِهِ واقترَبَ منهُ ببُطءٍ وهَمَسَ في أُذُنِهِ هذه الكلماتِ: «لقد فَتَحتْ عَينَيها يا سَيّدي ونظرَتْ حولَ مضجَعِها فلم ترَكَ ثُمّ نادَتْكَ بلَجاجةٍ[2] فجئتُ لأدعُوَكَ إليها».

فقام ناثانُ ومشَى مُسرِعاً والعبدُ يَتْبَعُهُ، ولما بلَغَ صَرحَهُ[3] دخلَ حُجرةَ العَليلةِ وانحنَى فوقَ سَريرِها آخِذاً يدَها النَحيلةَ بين يَدَيْهِ مُقَبِّلاً شفَتَيْها مِراراً كأنّه يريدُ أنْ يَنفُخَ في جَسدِها السَقيمِ حَياةً جَديدةً من حَياتِهِ، فحوّلَتْ نحوَه وَجهَها الغارِقَ بين المَسانِدِ الحَريريّةِ وفتحَتْ أجفَانَها قَليلاً، وظهَرَ على شفَتَيْها خيالُ ابتسامةٍ هي بَقيّةُ الحَياةِ في جَسدِها اللطيفِ، هيَ

(١) الحشاشة: بقيّة الروح في المريض.

(٢) بلجاجة: بإلحاحٍ.

(٣) صَرْحَه: قصرَهُ.

آخرُ أشعَّةٍ من نفسِها المُوَدِّعةِ، هي صَدَى نداءِ القَلبِ المُتَسارِعِ نحوَ الوُقوفِ. ثمّ قالت ومقَاطِعُ صَوتِها تُشابِهُ أنفاسَ طِفلِ الفَقيرةِ الجائِعِ:

قد نادَتْني الآلهةُ يا عريسَ نَفسِي، وجاءَ الموتُ ليَفصِلَني عَنكَ، فلا تَجزَعْ لأنَّ مَشيئةَ الآلهةِ مُقدَّسةٌ ومطالبَ المَوتِ عَادِلَةٌ. أنا ذاهبةٌ الآنَ وكأسا الحُبِّ والشَبيبةِ ما بَرِحَتا طافِحَتَيْنِ في أيدِينا، ومسالكُ الحياةِ الجَميلةِ ما زالَتْ مُنبسطةً أمامَنا. أنا راحلةٌ يا حَبيبي إلى مسَارِحِ الأرواحِ، وسوفَ أعودُ إلى هٰذا العَالَمِ لأنَّ عَشتروتَ العَظيمةَ تُرجِعُ إلى هذهِ الحَياةِ أرواحَ المُحِبِّينَ الذين ذهبُوا إلى الأبديَّة قبلَ أن يَتمتَّعوا بمَلَذَّاتِ الحُبِّ وغِبطَةِ الشَبيبة[1]. سوفَ نَلتقي يا ناثانُ ونَشرَبُ معاً نَدَى الصباحِ من كُؤوسِ النَرجسِ ونفرَحُ مع عَصافِيرِ الحقَلِ بأشعَّةِ الشَمس. إلى اللقاءِ يا حبيبي.

---

(١) ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في القرآن الكريم في سورة البقرة: ٢٨: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾. وكذلك ما جاء على لسان بوذا: «كنا بالأمس في هذه الحياة وقد جئنا الآن وسوف نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة».

وانخفضَ صوتُها وبقيَتْ شفتاها ترتجفانِ مثلَ زهرةٍ أقاحٍ ذابلةٍ أمام نُسَيْمَاتِ الفجرِ، فضمَّها حبيبُها وبلَّلَ عُنُقَها بالعَبَرات[1]. ولمَّا قرَّبَ شفتَيْه من ثغرِها وجدَه بارِداً كالثلج، فصرَخَ صُراخاً هائِلاً ومزَّقَ ثوبَه وارتمى على جُثتِها الهامِدَة ورُوحُه المُتوجِّعَةُ تراوِحُ بين لُجَجِ[2] الحياةِ وهاويةِ الموت.

في هُدوءِ ذلكَ الليلِ ارتجفَتْ أجفانُ الراقِدينَ وجزَعَتْ نساءُ الحَيِّ وذُعِرَتْ أرواحُ الأطفالِ إذ تبطَّنَتْ ملابسُ الدُّجى بنُواحٍ مُوجِعٍ وبُكاءٍ مُرٍّ وعَويلٍ أليمٍ مُتَصاعِدٍ من جَوانِبِ قصرِ كاهِنِ عشتروتَ.

ولمَّا جاءَ الصَّباحُ طلَبَ القومُ ناثانَ ليُعزُّوهُ ويؤاسُوه في مُصيبتِهِ فلم يَجِدُوه.

وبعدَ أيَّامٍ جاءَتْ قافلةٌ من المَشرِقِ أخبَرَ زعيمُها أنَّه رأى ناثانَ تائِهاً في البَرِّيَّةِ هائِماً مع أسرابِ[3] الغِزلانِ.

---

(١) العَبَرات: الدموع.

(٢) لجج: جمع لُجَّة، وهي معظم البحر وتردّد أمواجه.

(٣) أسراب: قِطعان.

مرّتِ الأجيالُ ساحقةً بأقدامِها الخَفيّةِ أعمالَ الأجيالِ، وبَعُدَتِ الآلهةُ عن البلادِ وحَلَّ مكانها آلهةٌ غَضوبٌ يَلَذُّ لها الهَدمُ ويُبهِجُها التخريبُ، فَدُكّتْ[1] هَياكلُ مدينةِ الشَمسِ الفَخمَةِ وَتَقَوَّضَتْ[2] قُصورُها الجَميلةُ ويَبِسَتْ حَدائِقُها النَضِرَةُ، وأَجَدَبَتْ حُقولُها[3] الخَصْبةُ، ولَم يبقَ في تلكَ البُقعةِ غيرُ طَللٍ بالٍ يُعيدُ للذّاكِرَةِ[4] أشباحَ الأمسِ فَيُؤلِمُها، ويُرجِعُ للنفسِ صدَى تهاليلِ المَجدِ القديمِ فَيُحزِنُها.

ولكنَّ الأجيالَ التي تمرُّ وتسحقُ أعمالَ الإنسانِ لا تُفني أحلامَه، ولا تُضعِفُ عَواطِفَهُ.

فالأحلامُ والعواطفُ تَبقى ببقاءِ الرُوحِ الكُلّي الخَالد، وقد تَتَوارَى حِيناً وتَهجَعُ[5] آونةً متشبِّهَةً

---

(١) دكّ البناء: هدَمَهُ حتى سوّاه بالأرض.

(٢) قوّض البناء: هدمه.

(٣) حدائقها النضرة: الحسنة الرونق والبهاء؛ أجدبت حقولها: انقطع عنها المطر ويبست.

(٤) الأصحّ قوله: يُعيد إلى الذاكرة.

(٥) تهجع: تنام.

بالشمسِ عندَ مَجيءِ اللَّيلِ وبالقَمرِ عندَ مَجيءِ الصبَاحِ.

(٢)

في ربيع سنة ١٨٩٠ لمجيء يسوع الناصري

توارَى النهارُ واضمَحَلَّ النورُ ولَمَّتِ الشمسُ وُشَاحَها عن سُهُولِ بَعلَبَكَّ فعادَ عليٌّ الحُسيني[١] أمامَ قَطيعِهِ نحوَ خرائبِ الهَيكلِ، وهناكَ جلسَ بينَ الأعمِدَةِ السَاقطةِ كأنَّها أضلعُ جُنديٍّ متروكٍ مَزَّقَتْها الهَيْجاءُ[٢] وجرَّدَتْها العَناصِرُ، فربضَتْ أغنامُهُ حولَه مُستأمِنَةً[٣] بأنغامِ شَبَّابَتِهِ.

انتصفَ الليلُ، وألقَتِ السَماءُ بذُورَ الغَدِ في أعماقِ ظُلمتِهِ، فتَعِبَتْ أجفانُ عليّ من أشباحِ اليَقظَةِ

---

(١) آل الحسيني: عائلة عربية لا تزال اليوم تسكن في منطقة بعلبك في البقاع اللبناني.

(٢) الهيجاء: الحرب.

(٣) المقصود: إما مستأمنة إلى أنغام شبّابته؛ وإما مستأنسة بأنغام شبّابته. والشبّابة: نوع من المزمار وتسمّيه العامّة: «منجيرة».

وَكَلَّتْ عاقِلَتُهُ[١] من مُرورِ مَواكِبِ الأخيلَةِ السَائِرَةِ بسَكينةٍ مُخيفَةٍ بينَ الجُدرانِ المَهدُومَةِ، فاتَّكأ على زَنْدِهِ، واقتَرَبَ النعاسُ ولامَسَ حَواسَّه بأطرافِ ثَنايا نِقابِهِ مثلَما يلامِسُ الضبابُ اللطيفُ وَجهَ البُحَيْرَةِ الهَادِئة، فنسيَ ذاتَه المُقتبَسَةَ والتقى بذاته[٢] المعنويةِ الخَفيَّةِ المُفعَمَةِ بالأحلامِ، المُترَفِّعَةِ عن شَرائعِ الإنسانِ وتَعاليمِه، واتَّسَعَتْ دَوائرُ الرُؤيا أمامَ عينَيهِ، وانبسَطَتْ له خَفايَا الأسرارِ، فانفردَتْ نفسُه عن مَوكِبِ الزَمَنِ المُتَسارِعِ نحوَ اللاشَيءِ ووقفَتْ وَحدَها أمامَ الأفكارِ المُتَناسِقَةِ والخَواطِرِ المُتَسابِقَةِ، ولأوّلِ مَرّةٍ في حَياتِهِ عَرَفَ أو كادَ يَعرِفُ أَسبابَ المَجاعَةِ الرُوحِيَّةِ[٣] المُلاحِقَةِ شَبيبَتَهُ. تلك المجاعةِ التي تُوحِّدُ بين حَلاوةِ الحَياةِ ومَرارتِها، ذلك الظَمأ الجَامِع بينَ تَأَوُّهِ الحَنينِ وسَكينةِ الاستِكفاء، ذلك الشَوقِ الذي لا تُزيلُه أمجادُ

---

(١) عاقلته: قوته المدركة.

(٢) الأصح قوله: والتقى ذاته. وبذلك تصبح «الباء» زائدة.

(٣) المجاعة الروحية: هي التسمية التي يحلو لجبران أن يطلقها دائماً على الحب.

العالَمِ ولا تُثنِيهِ[1] مَجاري العُمر.

لأوّلِ مَرّةٍ في حَياتِهِ شَعَرَ عليٌّ الحُسيني بعاطفةٍ غَريبةٍ أيقظَتْها خرائبُ الهَيكل. عَاطفةٍ رَقيقةٍ هي الذِكرى بمَنزلَةِ البَخُور من المَجامِرِ. عاطفةٍ سِحريّةٍ قدِ انعَكَفَتْ[2] علَى حَواسِّه انعكافَ أناملِ الموسيقيِّ على صُفوفِ الأوتار. عاطفةٍ جَديدةٍ قد انبثَقَتْ من اللاَّشَيءِ، أو مِن كُلِّ شَيءٍ، ونَمَتْ وتَدَرَّجَتْ حتّى عانَقَتْ كلِّيَّتَهُ المَعنويةَ وملأَتْ نفسَه بشغفٍ مُدنِفٍ[3] بلطفه، وتَوجُّعٍ مُستَعذَبٍ بمَرارتِهِ مستَطيبٍ بقَساوَتِهِ. عاطفةٍ تولَّدَتْ من خَلايا دَقيقةٍ وَاحدةٍ مُفعمَةٍ بالنُعاس، ومِن دقيقةٍ واحدةٍ تتولَّدَ رسومُ الأجيالِ مثلَما تتناسَلُ الأممُ من نُطفةٍ واحدة[4].

نظرَ عليٌّ نحوَ الهَيكلِ المَهدُومِ وقد تَبدَّلَ

---

(١) تثنيه: تعيده عن عزمه.

(٢) انعكفت على حواسه: لزمَتْها.

(٣) بشغفٍ مُدنِفٍ: الشغف: الوله؛ ومدنف: من دَنَفَ المريضُ: ثَقُلَ مرضُه ودنا من الموت، وهنا بمعنى: شديد، قاتلٍ.

(٤) نُطفة: ما يكوِّن الجنينَ في رَحِم المرأة.

النعاسُ بيَقظةٍ رُوحيَّةٍ فظهَرَتْ بَقايَا المَذبحِ المُخدَّشةِ واتَّضَحتْ أماكنُ الأعمِدَةِ المُرتَميَةِ وأُسسُ الجُدرانِ المُتداعيَةِ فجَمَدتْ عَيناهُ وخُفَقَ قلبُه، ومِثلَ ضريرٍ عادَ النورُ إلى عَينَيهِ فجأةً، فصارَ يرى ويفكِّرُ ويَتأمَّلُ. ومن تموُّجاتِ التَفَكُّر ودَوائرِ التأمُّل تولَّدَتْ في نفسِه أشبَاحُ الذِكرى فتَذكَّر؛ تذكَّرَ تلكَ الأَعمِدَةَ منتصبةً بفَخرٍ وعَظمةٍ. تذكَّرَ المسَارجَ والمَباخِرَ الفِضيَّةَ المُحيطَةَ بتِمثالٍ معبُودَةٍ مُهَابَة.[1] تذكَّر الكُهَّانَ الوَقُورِينَ يُقدِّمونَ الضَحَايا أمامَ مَذبحٍ مُصفَّحٍ بالعَاجِ والذَهَب. تذكَّرَ الصَبايا الضَارباتِ الدفوفَ والفتيانَ المُترنِّمينَ بمدائحِ ربَّةِ الحُبِّ والجَمال.

تذكَّر ورَأى هذه الصورَ متَّضِحَةً لبَصيرتِهِ المُتكهربةِ وشَعَرَ بتأثيراتِ غَوامِضِها تُحرِّكُ سَواكِنَ أعمَاقِه. ولكنَّ الذِكرَى لا تعيدُ غيرَ أشباحِ الأجسام التي نَرَاها فيما غَبَرَ[2] من أعمَارِنا، ولا يَرجِعُ إلى مَسامِعِنا إلا صدَى الأصواتِ التي وَعَتْها آذانُنا. فأيَّةُ

---

(١) مُهابَة: ذات هيبة وجلال.

(٢) غَبَرَ: مضى.

علاقةٍ بينَ هذه التذكاراتِ السحريةِ وماضِي حياةِ فتىً وُلِدَ بين المَضارِبِ[١] وصَرَفَ ربيعَ عُمرِه يَرعى قَطيعاً من الغَنَمِ في البَريةِ؟.

قامَ عَليٌّ ومشَى بين الحِجَارةِ المُتَقَوِّضَةِ وتَذكاراتُه البعيدةُ تُزيحُ أغشيةَ النسيانِ عن مُخيِّلتِهِ مثلما تُزيلُ الصبيّةُ نسيجَ العَنكبوتِ عن بلُّورِ مِرآتِها. حتى إذا ما بَلَغَ صَدرَ الهَيكلِ وَقَفَ كأنَّ في الأرض جَاذِباً يتمسَّكُ بقَدَمَيه، فنظَرَ وإذا به أمامَ تِمثالٍ مُهشَّمٍ مُلقًى على الحَضيضِ، فرَكَعَ بجَانبِهِ عَلَى غيرِ هُدًى وعَواطِفُه تتدفَّقُ في أحشائِهِ مثلما يتسارَعُ نزيفُ الدماءِ من جوَانِبِ الكُلُومِ البَليغةِ[٢]، ونبضاتُ قلبِه تَتَكاثرُ وتَتَهامَلُ[٣] مثلَ أمواجِ البَحرِ المُتصاعِدَةِ المُنخَفِضةِ، فخَشَعَ بصرُهُ وتأوَّهَ بمرارةٍ وبَكَى بُكاءً أليماً لأنه شَعَرَ بوَحدةٍ جَارِحَةٍ وبُعَادٍ مُتْلِفٍ[٤] فَاصِلٍ بينَ روحِه وروحِ

---

(١) المضارب: الخيام التي يسكنها العربُ الرُّحَّلُ.

(٢) الكلوم البليغة: الجراح العميقة.

(٣) تعبير غريب. وقد يكون المعنى: تتسارع.

(٤) مُتلِفٍ: مُضنٍ، مُهلِكٌ.

جَميلةٍ كانت بقُربِهِ قبلَ مَجيئِهِ إلى هذهِ الحَياةِ.

شَعَر بأن جوهرَ نفسِه لم يكن غَيرَ شَطرٍ من شُعلةٍ مُتَّقدةٍ فصَلَها الله عن ذاتِه قُبيلَ انقضاءِ الدّهرِ.

شَعَر بحفيفِ أجنحةٍ لَطيفةٍ تُرفرِفُ بين أضلُعِهِ المُلتهبَةِ وحَول لفائفِ دِمَاغِهِ المُنحلَّة.

شَعَرَ بالحبِّ القويِّ العظيم يَشمُلُ قلبَه ويَمتلِكُ أنفاسَه، ذلك الحبِّ الذي يُبيحُ[1] مكنوناتِ النفسِ للنفسِ ويفصِلُ بتَفاعيلِهِ بينَ العقلِ وعالَمِ المَقاييسِ والكمِّيةِ؛ ذلكَ الحبُّ الذي نسمَعُه متكلّماً عندَما تَخرُسُ ألسنةُ الحياةِ، ونراهُ مُنتصِباً كعَمُودِ النُور عندَما تَحجُبُ الظُلمةُ كُلَّ الأشياءِ؛ ذلك الحُبُّ، ذلك الإلهِ قد هَبَطَ في تلكَ الساعةِ الهادِئةِ على نفسِ عليٍّ الحُسَينيّ وأيقظَ فيها عواطفَ حُلوةً ومرّةً مثلَما تَستنبِتُ الشمسُ الزهورَ بجانبِ الأشوَاكِ.

ولكن ما هذا الحُبُّ، ومن أينَ أتى، ومَاذا يريدُ

---

(١) يُبيحُ: يُفصِح، يُظهر.

من فتىً رابضٍ مع قطيعِهِ بين تلكَ الهياكلِ الرميمةِ[1]؟ ما هذه الخمرةُ السائلةُ في كَبِدٍ لم تُحرِّكْها قطُّ لواحظُ[2] الصبايا؟ وما هذه الأغنيةُ السماويةُ المتموِّجةُ في مسامعِ بدويٍّ لم يُطرِبْهُ بعدُ شدوُ النساء[3]؟.

ما هٰذا الحبُّ، ومن أينَ أتى، وماذا يريدُ من عليٍّ المشغولِ عن العالَمِ بأغنامِهِ وشبّابتِهِ؟ هل هي نواةٌ ألقتْها محاسنُ بدويةٍ بين أعشارِ قلبِهِ على غيرِ معرفةٍ من حواسِّهِ، أم هُو شعاعٌ كان مُحتجِباً بالضبابِ وقد ظهرَ الآنَ لِيُنيرَ خلايا نفسِه؟ هل هو حُلمٌ سعى في سكينةِ الليلِ ليسخَرَ بعواطفِه، أم هي حقيقةٌ كانت منذُ الأزلِ وستبقى إلى آخرِ الدهرِ؟.

أغمضَ عليٌّ أجفانَهُ المُغلَّفةَ بالدموعِ ومدَّ يديْه كالمُتسوِّلِ[4] المُستعطِفِ وارتعَشَتْ روحُه في داخلِهِ

(١) رابضٍ: قاعد، بارِكٌ؛ الرميمة: الخَرِبَة.

(٢) كان من الأصوب قوله: ألحاظ، بدل: لواحظ. لأنَّ المفرد لَحْظ والجمع لِحاظ وألحاظ.

(٣) شدو النساء: غناؤهنّ.

(٤) المتسوّل: المستعطي (الشحّاذ).

ومن ارتعاشَاتِها المُتواصِلَةِ انبثَقَتِ الزَفَراتُ المُتقطِّعةُ المُؤلَّفةُ بينَ تذلُّلِ الشَكوى وحُرقَةِ الشَوق، وبصَوتٍ لا يُميِّزُهُ عن التنهُّدِ غيرُ رَنّاتِ الألفاظِ الضَعيفةِ هَتَفَ قائلاً:

«مَنْ أنتِ أيَّتُها القريبةُ من قَلبي، البَعيدةُ عن نَاظري، الفاصِلةُ بيني وبيني، المُوثِّقَةُ حاضِري بأزمنةٍ بَعيدةٍ مَنْسِيَّةٍ؟ أَطَيْفُ حُوريَّةٍ جاءَتْ من عَالَمِ الخُلودِ لتُبيِّنَ لي بُطلَ الحَياةِ وضُعفَ البَشرِ، أم رُوحُ مَليكةِ الجَانِ تصاعَدَتْ من شُقُوقِ الأرضِ لتَستَرِقَ منّي عاقِلتي وتَجعَلَني سُخريَةً بين فِتيانِ عَشيرتي؟ مَن أنتِ وما هذا الفتونُ المُميتُ المُحيي القابِضُ على قَلبي؟ وما هذه المشاعِرُ المَالِئَةُ جَوانِحي نُوراً وناراً؟ ومَنْ أنا وما هذه الذاتُ الجَديدةُ التي أدعُوها (أنا) وهِيَ غَريبةٌ عَنِّي؟ هل تَجرَعْتُ ماءَ الحَياةِ مع دقَائقِ الأثيرِ فصِرتُ مَلاكاً أرى وأسمَعُ خَفَايا الأسرار، أم هي خَمْرُ وَساوِسَ سَكِرْتُ بها فتعامَيْتُ عن حَقائقِ المَعقولات؟».

وسَكتَ دقيقةً وقد نمَتْ عَواطِفُهُ وتسامَتْ روحُه

فقال: «يا مَنْ تَبِينُها[1] النفسُ وتُدنِيها ويَحجُبُها الليلُ ويُقصِيها - أيتُها الروحُ الجَميلةُ الحائمةُ في فَضاءِ أحلامي، قد أيْقَظْتِ في بَاطني عواطفَ كانت نائمةً مثلَ بُذورِ الزُهورِ المُختبئةِ تحتَ أطباقِ الثَلجِ، ومَررتِ كالنسيمِ الحَامِلِ أنفَاسَ الحُقولِ ولامَسْتِ حَواسّي فاهتزَّتْ واضطرَبَتْ كأوراقِ الأشجار! دَعِيني أراكِ إن كنتِ لابسةً من المَادّةِ ثوباً. أو مُري النومَ أنْ يُغمِضَ أجفَاني فأراكِ بالمَنامِ إن كنتِ مَعتوقةً[2] من التُراب. دعيني ألمُسْكِ. أسمِعيني صَوتَك، مَزّقي هذا النِقابَ الحَاجِبَ كُلّيَتي وَاهدِمي هذا البناءَ السَاتِرَ أُلوهيَّتي وَهَبيني جَناحاً فأطيرَ وَراءَكَ إلى مَسارحِ المَلإِ الأعلى إن كنتِ من سُكّانها، أو لامِسي عَينَيَّ بالسِحرِ فأتبَعَكِ إلى مَكامِنِ الجَانِ إن كُنتِ من عَرائِسِها. ضَعي يدَكِ الخفيَّةَ على قَلبي وامتَلكيني إن كُنتُ حرِيّاً باتّباعك».

كان عَليٌّ يَهمِسُ في آذانِ الدُجى كَلِماتِهِ

(١) تبينها: تُبعِدُها من بانَ يبِينُ. وبانَ يبان: ظهر.

(٢) معتوقة: متحرّرة.

المُتناسِخَة[1] عن صدَى نَغمةٍ مُتمايلةٍ في أعمَاقِ صَدرِهِ وبينَ ناظرِه ومُحيطهِ تَنْسَلُ أشباحُ الليلِ كأنها أبخرةٌ مُتولِّدةٌ من مَدامِعِه السَخينةِ، وعلى جُدرانِ الهَياكِلِ تتمثّلُ له صُورٌ سِحريّةٌ بألوانِ قَوسِ قُزحٍ.

كَذَا مرّتْ ساعةٌ وهو فَرِحٌ بدُموعِه، مُغتَبِطٌ بلَوعتِهِ، سَامِعٌ نَبضاتِ قَلبِهِ، ناظرٌ إلى ما وراءَ الأشياءِ كأنّه يرَى رسُومَ هذه الحياةِ تضمَحِلُّ ببُطءٍ ويَحُلُّ مكانَها حُلمٌ غريبٌ بمحَاسِنِهِ هائلٌ بهواجِسِهِ. ومِثلَ نَبيٍّ يتأمّلُ نجومَ السَماءِ مُترَقّباً هُبوطَ الوَحي صَارَ يَنتظرُ مآتي الدقائقِ، وتَنهيداتُهُ المُسرِعَةُ تُوقِفُ أنفاسَه الهَادئةَ، ونفسُه تترُكه وتسبَحُ حولَه ثم تعودُ إليه كأنّها تبحَثُ بين تلكَ الخَرائبِ عن ضَائعٍ عَزيزٍ.

لاحَ الفجرُ وارتجَفَتِ السَكينةُ لمُرورِ نُسَيْماتِهِ وسَالَ النورُ البَنفْسَجيُّ بينَ دقائقِ الأثيرِ، وابتسَمَ الفضاءُ ابتسامةَ نائمٍ لاحَ له في الحُلمِ طيفُ حَبيبتِهِ،

---

(١) المتناسخة: المنتقلة من... إلى... من تناسخ إي تتابع وتداول. والتناسُخُ: انتقال النفس الناطقة من بَدَنٍ إلى بَدَنٍ آخر ويُعرف بالتقمُّص.

فظهَرَتِ العَصافيرُ من شُقوقِ جُدرانِ الخَرائِب، وصارَتْ تَنتقِلُ بينَ تلكَ الأعمِدَةِ وتَترنَّمُ وتَتناجى مُتنبِّئةً بمَآتي النَهارِ. فانتصَبَ عَليٌّ واضِعاً يَدَهُ على جَبهتِهِ المُلتَهِبَةِ ونظرَ حَولَه بطَرْفٍ جَامِدٍ، ومثلَ آدمَ عندَما فتحَتْ عينَيه نفخَةُ الله صار ينظرُ مُستَغرِباً كلَّ ما يَراه. ثمّ اقتربَ من نِعاجِهِ ونَاداها فقامَتْ وانتفضَتْ ومشَتْ وراءَه بهدُوءٍ نحوَ المُروجِ الخَضْراء. سَار عليٌّ أمامَ قَطيعِهِ وعيناه الكَبيرتَانِ مُحدِّقتانِ إلى الفَضاءِ الصَافي وعواطِفُهُ المُنصرِفَةُ عن المَحسُوساتِ تُبيِّنُ له غَوامِضَ الوجُودِ ومُستَتِراتِهِ وتُريهِ ما غَبَرَ من الأجيالِ وما بَقِيَ منها بلَمحَةٍ واحِدة، وبلمحَةٍ واحدةٍ تُنسيه كلَّ ذلك وتُعيدُ إليه الشوقَ والحَنينَ، فيجدُ ذاتَه مُنحَجِباً[١] عن رُوحِ رُوحِهِ انحجابَ العينِ عَنِ النُور، فيَتَنَهَّدُ ومع كلِّ تَنهيدَةٍ تنسلخُ شُعلةٌ من فؤادِهِ المُتَّقِدِ[٢].

بلغَ الجدولَ المُذيعَ بخَريرِه سَرائِرَ الحُقُولِ فجَلَسَ على ضِفَّتِهِ تحتَ أغصَانِ الصَفصَافِ المُتدلِّيَةِ

(١) منحجباً: مستتراً.

(٢) المتّقد: المشتعل، الملتهب.

إلى المِياهِ كأنّها ترومُ[1] امتصاصَ عُذوبتِها، وانثنتْ[2] نعاجُه تَرتَعي الأعشابَ ونَدَى الصَباحِ يتلمّعُ على بَياضِ صُوفِها. ولم تَمرَّ دقيقةٌ حتى شَعَرَ بتسارُعِ نبضاتِ قلبِه وتضاعُفِ اهتزازاتِ رُوحِه، ومثل راقدٍ أجفلَتْه[3] أشعّةُ الشمسِ تحرّكَ وتلفّتَ حَولَه فرأى صَبيَّةً قد ظهرَتْ من بينِ الأشجارِ تحمِلُ جَرّةً على كَتفِها وتتقدّمُ على مَهلٍ نحوَ الغديرِ وقد بَلّلَ النّدَى قدمَيْها العَارِيتَين.

ولما بلغَتْ حافّةَ الجَدولِ وانحنَتْ لتملأَ جَرّتَها التفتَتْ نحوَ الحَافةِ المُقابلةِ فالتقَتْ عيناها بعينَيْ عليٍّ فشهقَتْ ورمَتْ بالجَرّةِ ثم تراجَعَتْ قليلاً إلى الوَرَاءِ وشخَصَتْ به شُخُوصَ ضَائعٍ وَجَدَ مَنْ يَعرِفُهُ...

مرّت دَقيقةٌ كانت ثَوانيها مثلَ مَصابيحَ تهدِي قَلبَيْهما إلى قلبَيْهما مُبتدِعَةً من السَكينةِ أنغَاماً غَريبةً تُعيدُ إلى نفسَيْهما صَدَى تَذكاراتٍ مُبهَمةٍ وتُبيِّنُ الواحدَ

(١) تروم: من رام يروم: تطلب، تريد.

(٢) انثنت: مالت.

(٣) أجفلته: نفّرته فشرد وهرب.

منهُما للآخَرِ في غَيرِ ذلك المَكانِ مُحَاطاً بصُورٍ وأشباحٍ بَعيدةٍ عن ذلكَ الجَدولِ وتلكَ الأشجار، فكان كُلٌّ منهُما ينظرُ إلى الآخرِ نِظرةَ الاستِعطاف ويَتَفرَّسُ فيه مُستلطِفاً مَلامِحَهُ[١] مُصغِياً لتنهُداتِهِ بكُلِّ ما في عواطِفِهِ من المَسَامِعِ، مُناجياً إيّاهُ بكُلِّ ما في نفسِه من الألسِنةِ، حتى إذا ما تَمَّ التفاهُمُ وتكامَلَ التعارُفُ بين الرُوحَيْنِ عَبَرَ عليٌّ الجَدولَ مَجذُوباً بقوّةٍ خفَيّةٍ واقتَرَبَ من الصَبيّةِ وعانَقَها وقَبَّلَ شَفَتَيْها وقَبَّلَ عُنُقَها وقَبَّلَ عَينَيها فلم تُبدِ حِراكاً بينَ ذِراعَيْه كأنَّ لذةَ العِناقِ قدِ انتزعَتْ منها إرادَتَها، وَرِقَّةَ الملامَسة قد أخذَتْ منها قُواها، فاستَسْلَمَتْ استِسْلامَ أنفاسِ الياسَمينِ لتموُّجَاتِ الهَوَاءِ، وألقَتْ رأسَها على صَدرِهِ كمُتعَبٍ وَجَدَ رَاحةً، وتنهَّدَتْ تَنهدةً عَميقةً تُشيرُ إلى حُدُوثِ انبساطٍ في فُؤادٍ مُنقَبِضٍ وتُعلنُ ثَورَاتِ جَوانِحَ كانَت راقِدَةً فأفاقَتْ، ثمّ رفعَتْ رأسَها ونظرَتْ إلى عيْنَيه نَظرةَ مَنْ يَستَصغِرُ الكَلامَ المُتعارَفَ بينَ البَشرِ

(١) يتفرَّسُ فيه: ينظر ويثبِّتُ نظرَه فيه؛ مستلطفاً: بمعنى مستنطقاً.

بجانبِ السكينة - لغةِ الأرواحِ - نظرةَ مَنْ لا يرضى بأن يكونَ الحُبُّ رُوحاً في أجسَادٍ مِنَ الألفَاظ.

مشى الحَبيبانِ بَينَ أشجارِ الصَفصَافِ ووَحدانيّةُ كلَيْهما لسانٌ ناطقٌ بتوحِيدِهما، ومَسمَعٌ مُنصِتٌ لوَحيِ المَحبّةِ، وعَينٌ مُبصِرَةٌ مجدَ السعادةِ، تَتْبَعُهُما الخِرافُ مُرتعيةً رؤوسَ الأعشابِ والزُهورِ، وتُقابِلُهما العصافيرُ من كلّ ناحيةٍ مرتّلةً أغانيَ السِحر!.

ولما بلغَا طَرَفَ الوَادي، وكانَتِ الشمسُ قد طَلَعَتْ وألقَتْ على تلك الرَوابي رِداءً مُذهّباً، جلسَا بقربِ صَخرةٍ يحتَمِي البنفسجُ بظِلّها. وبعدَ هُنيهةٍ نظرَتِ الصبيّةُ في سَوادِ عَينَيْ عليّ وقد تلاعَبَ النسيمُ بشعرِها كأنّ النسيمَ شِفاهٌ خفيّةٌ ترومُ تقبيلَها، وشعرَتْ بأناملَ سِحريّةٍ تُداعِبُ لِسانَهَا وشَفتَيْها رُغمَ إرَادتِها، فقالَتْ وفي صَوتِها حلاوةٌ جَارِحةٌ:

قد أعادَتْ عشتروتُ رُوحَيْنَا إلى هٰذه الحياةِ كيلا نُحرَمَ ملذاتِ الحُبِّ، ومَجدَ الشبيبةِ يا حَبيبي!

فأغمَضَ عليٌّ أجفانَهُ وقد استحضرَتْ مُوسيقى

كلماتِها رسُومَ حُلمٍ طالما رَآه في نَومه، وشعَرَ بأجنحَةٍ غَيرِ مَنظُورَةٍ قد حَمَلَتْهُ من ذلك المَكانِ وأوقَفَتْهُ في حُجرةٍ غريبةِ الشَكلِ بِجانِبِ سَريرٍ مُلقًى عليه جُثمانُ امرأةٍ جَميلةٍ أخَذَ الموتُ بهاءَها وحَرارةَ شفتَيْها، فصرَخَ مُلتاعاً من هَولِ المَشهدِ ثُمَّ فَتَحَ أجفانَه فوَجَدَ تلكَ الصبيَّةَ جالسةً بجانِبِهِ وعلى شفَتَيْها ابتسامةُ مَحبّةٍ وفي لَحْظِها[1] أشعَّةُ الحياةِ، فأشرَقَ وجهُه وانتعشَتْ روحُه وتضعضَعَتْ أخيلةُ رؤيَاهُ ونسِيَ المَاضِي ومآتيه...

تعانَقَ الحَبيبانِ وشَربَا مِن خمرة القُبَلِ حتى سَكِرَا ونامَ كُلٌّ منهُما مُلتَفاً بذراعَي الآخرِ إلى أنْ مالَ الظِلُّ وأيقَظَتْهُما حرارةُ الشمس.

***



(١) الصحيح لحاظها جمع لحظ أي باطن العين.

مرتا البانية[1]

١

ماتَ والدُها وهيَ في المَهدِ[2]، وماتَتْ أمُّها قبلَ بُلوغِها العَاشِرَةَ، فتُركَتْ يتيمةً في بيت جَارٍ فقيرٍ يعيشُ مع رَفيقَتِهِ وصِغارِه من بُذُورِ الأرضِ وثِمَارِها في تلكَ المزرعةِ المُنفرِدَةِ بين أوديةِ لبنانَ الجميلةِ.

مات والدُها ولم يُورِثْها غيرَ اسمِه وكوخٍ حَقيرٍ قَائِم بينَ أشجارِ الجَوزِ والحَورِ، وماتَتْ أمُّها ولم تترُكْ لها سِوى دُمُوعِ الأسى وذُلِّ التيتُّمِ، فباتَتْ غَريبةً في أرضِ مَولِدِها، وَحيدَةً بين تلكَ الصُخُورِ العَاليةِ

(١) نسبة إلى بان وهي قرية جميلة في شمال لبنان.

(٢) المهد: سرير الطفولة.

والأشجارِ المُحتبكَةِ، وكانَتْ تسيرُ في كُلِّ صَباحٍ عاريةَ القَدَمَيْن رَثّةَ الثوبِ وراءَ بَقرةٍ حَلوبٍ إلى طَرَفِ الوادِي حيثُ المَرعى الخَصيبُ، وتَجلسُ بظِلِّ[1] الأغصانِ مُتَرَنِّمَةً مع العَصافيرِ، باكيةً مع الجَداوِلِ، حاسِدَةً البقرةَ على وَفرةِ المآكِلِ، مُتأمِّلَةً بنُمُوِّ الزُهورِ ورَفرفَةِ الفَراشِ. وعندَما تغيبُ الشمسُ ويُضنِيها[2] الجُوعُ تَرجِعُ نحوَ ذلكَ الكُوخِ وتجلسُ مع صَبيَّةِ وَليِّها مُلتَهِمَةً خبزَ الذرةِ مع قليلٍ من الثِمارِ المُجفّفةِ والبُقولِ المَغموسَةِ بالخَلِّ والزَيتِ، ثمّ تَفترشُ القَشَّ اليابِسَ مُسنِدَةً رأسَها بسَاعِدَيْها وتنامُ مُتَنَهِّدَةً مُتمنّيةً لو كانتِ الحَياةُ كلُّها نوماً عَميقاً لا تَقطَعُهُ الأحلامُ ولا تَليه اليَقظةُ. وعندَ مَجيءِ الفَجرِ ينتَهِرُها[3] وَليُّها لقَضاءِ حَاجةٍ فَتهُبُّ من رُقادِها مُرتَعِدةً خائِفَةً من سُخطِهِ وتَعنيفِهِ.

كذا مرَّتِ الأعوامُ على مَرتا المِسكينةِ بين تلك

(١) كان من الأفضل والأصحّ قوله: تجلس في ظِلِّ الأغصان.

(٢) يُضنيها: يُتعبها، يُفقِدُها قُواها.

(٣) ينتهرها: يزجرها، يطلبُ منها بصوتٍ جافٍّ غليظ.

الرَوابي والأوديةِ البَعيدةِ فكانَتْ تنمُو بنُمُوِّ الأنصابِ[1] وتتولَّدُ في قَلبِها العواطفُ على غَيرِ مَعرفةٍ منها مثلَما يتولَّدُ العِطرُ في أعمَاقِ الزَهرة، وتَنتابُها الأحلامُ والهَواجِسُ مثلَما تتناوَبُ القُطعانُ مَجارِيَ المِياهِ، فصارَتْ صَبيَّةً ذاتَ فِكرةٍ تُشابِهُ تربَةً جَيِّدَةً عذراءَ لم تُلقِ بها المَعرِفَةُ بُذوراً ولا مَشَتْ عَليها أقدامُ الاختبارِ، وذاتَ نفسٍ كبيرةٍ طَاهِرةٍ مَنفيَّةٍ بحُكمِ القَدَرِ إلى تلكَ المَزرعةِ حَيثُ تتقلَّبُ الحياةُ مع فُصولِ السَنةِ كأنها ظِلُّ إلهٍ غَيرِ مَعروفٍ جَالِسٍ بينَ الأرضِ والشَمس.

نحنُ الذين صَرَفُوا مُعظَمَ العُمرِ في المُدُنِ الآهِلَةِ نكادُ لا نَعرِفُ شَيئاً عن مَعيشَةِ سُكَّانِ القُرَى والمَزارعِ المُنزَويَةِ في لبنانَ، قَد سِرْنا مع تَيَّارِ المَدَنيَّةِ الحَديثَةِ حتَّى نَسِينَا أو تناسَيْنا فلسفةَ تلكَ الحَياةِ الجميلةِ البَسيطةِ المَملوءَةِ طُهراً ونَقاوَةً، تلكَ الحياةِ التي إذا ما تأمَّلناها وجَدْنَاها مُبتسِمَةً في الرَبيعِ، مُثقَلةً[2] في الصَيفِ،

---

(١) الأنصاب: ما يُنصب من الشجر، أي ما يُغرسُ في الأرض ليصبح شجراً مُثمراً.

(٢) المقصود: مُثقَلةً بالثمار. وكان من الأفضل إضافة هذه الكلمة.

مُستَغِلّةَ في الخَريفِ، مُرتاحَةَ في الشِتاءِ، مُتشبِّهَةَ بأمِّنا الطَبيعةِ في كُلِّ أدوارِها. نحنُ أكثرُ من القَرويّين مالاً وهُم أشرفُ مِنّا نُفوساً. نحنُ نزرعُ كثيراً ولا نحصُدُ شيئاً، أمّا هُم فيحصُدُون ما يَزرَعُون. نحنُ عبيدُ مَطامِعِنا وهُم أبناءُ قَناعَتِهم. نحنُ نشرَبُ كأسَ الحَياةِ مَمزوجَةَ بمَرارةِ اليَأسِ والخَوفِ والمَلَلِ، وهُم يرتَشِفُونَها صَافِيَةً.

بلغَتْ مَرتا السادسةَ عشَرةَ وصارَتْ نفسُها مثلَ مرآةٍ صَقيلةٍ تَعكسُ مَحاسِنَ الحُقولِ، وقلبُها شَبيهاً بخلايا[١] الوَادي يُرجّعُ صَدَى كُلِّ الأصوَاتِ... ففي يومٍ من أيامِ الخَريفِ المَملوءَةِ بتأوّهِ الطبيعةِ جلسَتْ بقُربِ العَينِ المُنعَتِقَةِ[٢] من أسْرِ الأرضِ انعتاقَ الأفكارِ من مُخيّلةِ الشّاعِرِ، تتأمّلُ باضطِرابِ أوراقَ الأشجارِ المُصفرّةِ وتلاعُبَ الهَواءِ بها مثلما يتلاعَبُ المَوتُ بأرواحِ البَشرِ، ثمّ تنظرُ نحوَ الزُهورِ فتَراها قد ذَبُلَتْ

---

(١) المقصود: الخلاء والفراغ. والكلمة المستعمَلَة لا تؤدي المعنى المطلوب.

(٢) المنعتقة: المتحرِّرة.

ويَبِسَتْ قلوبُها حتى تشقّقَتْ وأصبَحَتْ تَستودِعُ الترابَ بُذورَها مثلَما تَفعَلُ النِساء بالجَواهِرِ والحِلَى أيّامَ الثَوراتِ والحُرُوب.

وبينَما هي تنظرُ إلى الزُهورِ والأشجار، وتَشعُرُ معَها بألمِ فِرَاقِ الصَيفِ، سَمِعَتْ وَقْعَ حَوافِرَ على حَصباءِ الوَادي، فالتفتَتْ وإذا بفَارسٍ يتقدَّمُ نحوَها ببُطءٍ، ولمَّا اقترَبَ منَ العَينِ وقد دلَّتْ ملامِحُهُ ومَلابسُه على تَرَفٍ وكياسَةٍ، تَرجَّلَ عن ظَهرِ جَوادِهِ وحيَّاهَا بلُطفٍ ما تَعوَّدَتْهُ من رَجُلٍ قطُّ، ثمَّ سألها قائلاً: «قد تِهْتِ عن الطريقِ المُؤدِّيَةِ إلى السَاحِلِ، فهل لكَ أن تَهدِيَني أيتُها الفَتاة؟» فأجابَتْ وقد وَقَفَتْ مُنتصِبةً كالغُصنِ على حَافةِ العَين: «لستُ أدري يا سَيِّدي ولكنِّي أذهبُ وأسألُ وَليِّي فهو يَعلَم». قالت هذه الكلمات بوَجَلٍ ظَاهرٍ[1] وقد أكسَبَها الحَياءُ جَمالاً ورِقَّة. وإذ هَمَّتْ بالذهابِ أوقَفَها الرجُلُ وقد سَرَتْ في عُروقِهِ خَمرةُ الشَبيبةِ وتغيَّرتْ نَظراتُه وقال:

(١) بوَجَلٍ ظاهر: بخوفٍ ظاهر.

«لا، لا تَذهبي». فوقَفتْ في مكانِها مُستغربَةً شاعِرَةً بوُجودِ قُوّةٍ في صَوتِهِ تَمنَعُها عن الحِراكِ. ولمّا اختلسَتْ مِنَ الحَياءِ نَظرةً إليه رَأتْه يَتأمّلُها باهتمامٍ لم تَفْقَهْ[1] له مَعْنًى، وَيبتسمُ لها بلُطفٍ سِحريٍّ يكادُ يُبكِيها لعُذُوبَتِهِ، وينظرُ بمَوَدّةٍ ومَيلٍ إلى قدمَيْها العَارِيَتَيْنِ ومِعْصَمَيْها[2] الجَميلَيْنِ وعُنُقِها الأملسِ وشَعرِها الكَثيفِ النّاعِمِ، ويتأمّلُ بافتتانٍ وشَغَفٍ كيف قد لوَّحَتِ الشمسُ بَشَرَتَها وقَوَّتِ الطبيعةُ ساعِدَيْها. أمّا هي فكانَتْ مُطرِقَةً خَجَلاً لا تُريدُ الانصِرافَ ولا تَقوَى على الكَلامِ لأسبابٍ لا تُدرِكُها.

في ذلكَ المساءِ رَجَعَتِ البقرةُ الحَلُوبُ وحدَها إلى الحَظيرة، أمّا مَرتا فلم تَرجِعْ. ولما عادَ وَليُّها مِنَ الحَقل بَحَثَ عَنها بين تلكَ الوِهادِ[3] ولم يَجِدْها، فكانَ يُناديها باسمِها ولا تُجيبُهُ غيرُ الكُهوفِ وتأوُّهاتِ الهَواءِ بينَ الأشجارِ.

---

(١) لم تَفقَهْ: لم تدرك.

(٢) معصمَيْها: مثنى المعصم وهو مكانُ السوار من اليد.

(٣) الوِهاد: ج الوَهدة: الأرض المنخفضة.

فرجَعَ مُكتئباً إلى كُوخِهِ وأخبَرَ زوجتَه فبَكَتْ بسكينةٍ طولَ[1] ذلكَ الليلِ وكانَتْ تقولُ في سِرِّها: رأيتُها مَرَّةً في الحُلم بينَ أظافرِ وَحشٍ كاسرٍ يُمزِّقُ جسدَها وهي تبتسِمُ وتَبكي!.

هذا إجمالُ ما عرفتُه عن حَياةِ مَرتا في تلكَ المَزرعةِ الجَميلةِ، وقد تخبَّرتُه من شَيخٍ قرويٍّ عَرَفَها مُذ كانت طِفلةً حتى شَبَّتْ واختَفَتْ من تلك الأماكِنِ غيرَ تاركةٍ خَلفَها سِوى دُموعٍ قَليلةٍ في عَيني امرأةِ وَليِّها، وذكرى رَقيقةٍ مُؤثِّرةٍ تسيلُ مع نُسَيْمَاتِ الصَباحِ في ذلك الوَادي، ثمّ تَضمَحِلُّ كأنَّها لُهاثُ طفلٍ على بِلّورِ النَافذةِ.

٢

جاء خريفُ سنةِ ١٩٠٠ فعدتُ إلى بيروتَ بعدَ أن صَرَفْتُ العُطلةَ المدرسيّةَ في شَمالِ لبنانَ، وقبلَ دخُولي إلى المَدرسةِ قضيتُ أُسبوعاً كامِلاً أتجوّلُ مع

---

(١) المقصود: بصمتٍ طوالَ ذلك الليل.

أترابي[1] في المَدينةِ مُتمتّعينَ بغِبطةِ الحُريةِ التي تَعشقُها الشّبيبةُ وتُحرَمُها في مَنازِلِ الأهلِ وبينَ جُدرانِ المَدرسةِ، فكُنّا أشبهَ بعَصَافِيرَ رأتْ أبوابَ الأقفاصِ مَفتوحةً أمامَها فصارَتْ تُشبعُ القلبَ من لَذّةِ التنقّلِ وغِبطَةِ التَغريدِ. والشّبيبةُ حُلمٌ جَميلٌ تَسترقُ عُذوبتَه مُعَمّيَاتُ[2] الكُتُبِ وتجعَلُهُ يَقظةً قاسيةً. فهل يجيءُ يومٌ يجمَعُ فيه الحُكَماءُ بينَ أحلامِ الشّبيبةِ ولذّةِ المَعرفَةِ مثلَما يجمَعُ العِتابُ بينَ القُلوبِ المُتنافِرَةِ؟ هل يَجيءُ يومٌ تُصبِحُ فيه الطبيعةُ مُعَلّمَةَ ابنِ آدمَ، والإنسانيَّةُ كتابَهُ، والحياةُ مَدرستَهُ؟ هل يجيءُ ذلك اليوم؟ لا ندري. ولكنّنا نشعرُ بسَيرِنا الحثيثِ نحوَ الارتقاءِ الرُوحِيّ، وذلك الارتقاءُ هو إدراكُ جمالِ الكائناتِ بوَاسِطةِ عَواطِفِ نُفُوسِنا واستِدرارِ السَعادةِ بمَحبّتِنا ذلك الجَمالَ.

ففي عَشيّةِ يَومٍ وقد جَلستُ على شُرفَةِ المَنزلِ أتأمّلُ العِراكَ المُستَمِرّ في سَاحةِ المَدينةِ، وأسمَعُ

(١) أترابي: رفاقي الذين في سنّي، وعمري.

(٢) معمّيَاتُ الكتب: غوامضها التي تخفى على القارئ.

جَلَبَةِ[١] باعةِ الشَوارعِ ومُنادَاةَ كُلٍّ مِنهُم عن طِيبِ ما لدَيْه من السِلَعِ[٢] والمَآكل، اقتربَ مني صَبِيٌّ ابنُ خَمسٍ يرتَدي أطماراً باليةً ويَحمِلُ على مَنكِبَيْهِ طَبَقاً عليه طاقاتُ الزُهورِ[٣] وبصَوتٍ ضَعيفٍ يُخفِضُه الذُلُّ المَوروثُ والانكسارُ الأليمُ قال:

ـ أتشتَري زَهراً يا سيِّدي؟.

فنظَرْتُ إلى وَجهِه الصَغيرِ المُصْفَرِّ، وتَأمَّلْتُ عينَيه المَكحُولتَيْنِ بأخيلَةِ التَعاسَةِ والفَاقَةِ[٤]، وفمَه المفتوحَ قَليلاً كأنه جُرحٌ عَميقٌ في صَدرِ مُتَوجِّعٍ، وذراعَيْه العَاريتَيْن النَحيلَتَيْن، وقامتَه الصغيرةَ المَهزولةَ المُنحنيَةَ على طَبقِ الزهورِ كأنَّها غُصنٌ من الوَردِ الأصفَرِ الذَابلِ بينَ الأعشابِ النَضِرَةِ؛ تأمَّلْتُ كلَّ هذه الأشياءِ بلَمحَةٍ مُظهِراً شفقَتِي بابتسَاماتٍ هيَ أمرُّ من الدُموعِ، تلكَ الابتساماتِ التي تَنشقُّ من أعماقِ قُلوبنا

---

(١) جلبة: اختلاط الأصوات والصياح.

(٢) السِلَع: ج سِلعة: المتاع وما يُتاجَرُ به.

(٣) الأفضلُ تنكير «الزهور» لضبط سياق المعنى.

(٤) الفاقة: الحاجة الشديدة، العَوَز.

وتَظهَرُ على شِفاهِنا ولو تَرَكْنَاها وشَأنَها لتَصاعَدَتْ وانسَكَبَتْ مِن مَآقينا، ثُمَّ ابتعتُ بعضَ زُهورِه وبُغْيَتِي ابتياعُ مُحَادَثَتِهِ لأنني شَعَرتُ بأنَّ من وراءِ نَظَراتِهِ المُحزِنَةِ قلباً صَغيراً يَنطَوي عَلى فَصلٍ من مَأساةِ الفُقَراءِ الدائمِ تَمثيلُها على مَلعبِ الأيام، وقَلَّ مَنْ يهتَمُّ بمُشاهَدتِها لأنّها مُوجِعَة. ولمَّا خاطبتُه بكلماتٍ لَطيفةٍ استأمَنَ واستأنَسَ ونَظَرَ إليَّ مُستغرِباً لأنّه مثلُ أترابِهِ الفقراءِ لم يَتَعَوَّدْ غيرَ خَشِنِ الكَلام مِن أولئكَ الذين يَنظرونَ غالباً إلى صِبْيَةِ الأزِقَّةِ كأشياءَ قَذِرَةٍ لا شأنَ لها، وليسَ كنُفوسٍ صَغيرةٍ مكلومَةٍ بأسهُمِ[1] الدَهر.

وسألتُه إذ ذاكَ قائلاً:

ـ ما اسمُكَ؟.

فأجابَ وعيناهُ مُطرِقَتانِ إلى الأرض:

ـ اسمي فؤاد!

قلت: ابنُ مَنْ أنتَ وأينَ أهلُك؟

---

(١) المقصود سهام. لأن أسهم جمع سهم بمعنى نصيب، وفي الاقتصاد جزء من رأس المال؛ ومكلومة: مجروحة.

قال: أنا ابنُ مرتا البانيّة.

قلتُ: وأين والدُك؟.

فهزّ رأسَه الصَغيرَ كمَنْ يجهَلُ مَعنى الوالد، فقلت:

ـ وأينَ أمُّك يا فؤاد؟.

قال: مريضةٌ في البيت.

تجرّعَتْ مَسَامِعي هذه الكلماتِ القليلةَ من فَم الصَبيّ وامتصَّتْها عَواطفي مُبتدِعةً صُوَراً وأشباحاً غريبةً مُحزِنةً لأنّي عَرَفْتُ بلحظةٍ أنّ مرتَا المِسكينةَ التي سَمِعتُ حِكايتَها من ذلكَ القرويِّ هي الآنَ في بيروت مَريضةٌ. تلكَ الصَبيّةُ التي كانت بالأمسِ مُستأمِنَةً بَين[1] أشجارِ الأوديةِ هيَ اليومَ في المَدينةِ تُعانِي مَضَضَ[2] الفَقْرِ والأوجَاع، تلك اليتيمةُ التي صَرَفَتْ شَبيبتَها على أكفِّ الطبيعةِ ترعَى البقرَ في الحُقُولِ قد

---

(١) الأفضل قوله: مستأمنةً إلى أشجَارِ الأودية، أو: آمنةً بين أشجار الأودية.

(٢) مَضَض: ألم، وجع.

انحدَرَتْ مع جَرْفِ نهْرِ المَدينَةِ الفَاسِدَةِ وصارَتْ فريسةً بين أظفارِ التعاسَةِ والشَقاءِ.

كنتُ أفكّرُ وأتخيّلُ هذه الأشياء والصَبيُّ يَنظرُ إليَّ كأنّه رأى بعَين نفسِه الطَاهِرَةِ انسحَاقَ قَلبي. ولمّا أرادَ الانصِرافَ أمسَكْتُ بيدِهِ قائِلاً:

- سِرْ بي إلى أُمّكَ لأني أريدُ أن أرَاها!.

فسَارَ أمامي صَامِتاً مُتعجِّباً، ومِن حينٍ إلى آخرَ كان ينظرُ إلى الوراءِ ليَرَى إذا كنتُ بالحَقيقَةِ مُتّبِعاً خطواتِهِ.

في تلك الأزقَّةِ القَذِرَةِ حيثُ يَختَمِرُ الهَواءُ بأنفاسِ المَوت، بينَ تلك المَنازِلِ الباليةِ حيثُ يرتكبُ الأشرارُ جَرائِمَهُم مُختبئين بسَتَائِرِ الظُلمَةِ، وفي تلكَ المُنعَطَفاتِ المُلتويةِ إلى اليَمين وإلى الشمالِ التواءَ الأفاعِي السَوداءِ، كنتُ أسيرُ بخَوفٍ وتهيُّبٍ وراءَ صَبيٍّ له من حَداثتِهِ ونقَاوةِ قَلبِهِ شجَاعةٌ لا يشعُرُ بها مَنْ كان خبيراً بمَكايدِ أجلافِ[1] القَومِ في مدينةِ

(١) أجلاف: جمع جِلف وهو الغليظ الجافي.

يَدعُوها الشرقيُونَ عَروسَ سُوريا ودُرَّةَ تاجِ السَلاطِينِ، حتَّى إذا ما بلَغْنا أذيالَ الحَيِّ دَخلَ الصبَيُّ بيتاً حَقيراً لم تُبقِ منه السُنونَ غيرَ جَانبٍ مُتدَاعٍ، فدخلتُ خَلفَه وطَرقاتُ قلبي تتسَارَعُ كلَّما اقتربتُ حتَّى صِرتُ في وَسَطِ غرفةٍ رَطبةِ الهَواءِ ليس فيها من الأثاثِ غيرُ سِراجٍ ضعيفٍ يُغالِبُ الظُلمَةَ بسِهامِ أشعَّتِهِ الصَفراءِ، وسَريرٍ حَقيرٍ يَدُلُّ على عَوَزٍ مُبَرِّحٍ وفَقْرٍ مُدْقِعٍ[1] مُنطرِحَةٍ عليه امرأةٌ نائِمَةٌ قد حَوَّلَتْ وجهَها نحوَ الحائِط كأنَّها تحتَمي به من مظالِم العَالَم أو كأنَّها وَجَدَتْ بينَ جُدرانِهِ قَلباً أرقَّ وألْيَنَ من قُلوبِ البَشر. ولمَّا اقترَبَ الصَبِيُّ مِنها منادياً: «يا أُمَّاه!..» التفتَتْ إليه فرأتْهُ يُومِئُ نحوي فتحرّكَتْ إذ ذاك بين اللُحُفِ الرَثَّةِ، وبصَوتٍ مُوجِعٍ يلاحِقُهُ ألمُ النفسِ والتَنهُداتِ المُرَّةِ قالت:

ماذا تريدُ أيُها الرجُل؟ هل جئتَ لتبتاعَ حَياتي الأخيرةَ وتجعَلَها دَنِسَةً بشَهواتِكَ؟ اذهبْ عَنِّي فالأزِقَّةُ

---

(١) مبرّح: مُجهِد، شديد، مُتعب؛ فقر مدقع: لا مثيل له، شديد.

مَشحُونةٌ بالنِساء اللواتي يَبِعْنَكَ أجسادَهُنَّ ونفوسَهنَّ بأبخَسِ الأثمان. أمّا أنا فلم يبقَ لي ما أبيعُه غيرُ فَضَلاتِ أنفاسٍ مُتقطِّعةٍ، عمّا قريبٍ يَشتريها الموتُ براحَةِ القَبر!

فاقتربتُ من سريرِها وقد آلمَتْ كلماتُها قَلبي لأنها مُختَصَرُ حِكايتِها التَعِسَة، وقلتُ مُتَمنّياً لو كانت عَواطِفي تَسيلُ مع الكلام:

ـ لا تخافي منّي يا مرتا فأنا لم أجِئ إليكِ كحيوانٍ جائعٍ بل كإنسانٍ مُتوجِّع. أنا لبنانيٌّ عِشتُ زمناً في تلك الأوديةِ والقُرى القريبةِ من غابةِ الأرز. لا تخافي مِنّي يا مَرتا!

سمعَتْ كلماتي وشَعَرَتْ بأنّها صادرةٌ من أعماقِ نفسٍ تَتألَّمُ معَها، فاهتزَّتْ على مَضْجَعِها مثل القُضبانِ العاريةِ أمامَ رياحِ الشِتاءِ، ووضَعَتْ يدَيْها على وَجْهِها كأنّها تريدُ أن تَستُرَ ذاتَها من أمامِ الذِكرَى الهائِلةِ بحلاوَتِها، المُرّةِ بجمالِها. وبعدَ سكينةٍ مَمزُوجَةٍ بالتأوُّهِ ظَهَرَ وجهُها من بينِ كتفَيْها المُرتجفَتَيْن فرأيتُ عينَين

غائِرتَيْنِ مُحَدِّقتَيْنِ إلى شَيءٍ غيرِ منظورٍ مُنتَصِبٍ في فضاءِ الغُرفةِ، وشفَتَيْنِ يابِستَيْنِ تُحرِّكُهما ارتعاشاتُ اليأسِ، وعُنُقاً تتردَّدُ فيه حَشْرجَةُ النزعِ[1] المَصحُوبةُ بأنينٍ عميقٍ مُتقطِّعٍ، وبصَوتٍ يَبُثُّهُ الالتماسُ والاستعطافُ ويَستَرجِعُهُ الضَعفُ والألَمُ قالت:

ـ جئتَ مُحسناً مُشفِقاً فلْتَجزِكَ السماءُ عنّي إن كانَ الإحسانُ على الخطاةِ بِرّاً والشفقةُ على المَرذولينَ صَلاحاً. ولكنّي أطلبُ إليك أن تعودَ من حيثُ أتيتَ لأنَّ وقوفَك في هذا المَكانِ يُكسِبُكَ عاراً ومَذَمَّةً، وحنانَكَ عليَّ يُثمِرُ لكَ عَيباً ومَهانَةً. ارجعْ قبلَ أن يراكَ أحدٌ في الغرفةِ الدَنِسَةِ المَملوءةِ بأقذارِ الخنازيرِ، وسِرْ مُسرِعاً ساتِراً وجهَك بأثوابِكَ كيلا يَعرِفَكَ عابرو الطَريقِ. إنَّ الشفقةَ التي تَملأُ نفسَكَ لا تُعيدُ إليَّ طَهارتي، ولا تَمحُو عُيُوبي، ولا تزيلُ يَدَ المَوتِ القَويّةَ عن قلبي. أنا مَنفِيّةٌ بحُكمِ تَعاسَتي وذُنُوبي إلى هذهِ الأعماقِ المُظلِمةِ، فلا تَدَعْ شفقتَكَ تُدنيكَ من

(١) حَشرجَةُ النَزْعِ: غَرْغَرَةُ المُحتَضَرِ، وتردُّدُ نفسِه.

العُيوب. أنا كالأبرصِ[1] الساكنِ بين القُبورِ فلا تَقترِبْ منّي، لأنَّ الجامعةَ[2] تحسَبُكَ دَنِساً وتُقْصِيكَ[3] عنها إذا فَعَلتَ. ارجعِ الآنَ ولا تذكُرِ اسمي في تلكَ الأوديةِ المقدّسةِ، لأنَّ النعجةَ الجرباءَ يُنكِرُها رَاعِيها خَوفاً على قَطيعِه. وإذا ذكرتَني قُلْ قد ماتَتْ مَرتا البانيَّةُ ولا تَقُلْ غيرَ ذلك.

ثمّ أخذت يدَي ابنِها الصَغيرتَيْنِ وقبّلَتْهُما بلهفةٍ وقالت مُتنهِّدةً:

سوفَ ينظرُ الناسُ إلى وَلدي بعينِ السُخريةِ والاحتِقَار قائلينَ: هذا ثمرةُ الإثمِ، هذا ابنُ مَرتا الزَانيَةِ، هذا ابنُ العَارِ، هذا ابنُ الصُدَفِ. سوف يقُولُونَ عنهُ أكثرَ من ذلك، لأنَّهم عُميانٌ لا يُبصِرُون، وجُهلاءُ لا يَدرُون أنَّ أُمّه قد طَهّرَتْ طُفُولَتَهُ بأوجاعِها ودُموعِها، وكفّرَتْ عن حَياتِه

---

(١) الأبرص: المصاب بالبَرَص، وهو مرضٌ يُحدِث في الجسم قشراً أبيض يسبّب للمريض حَكّاً مؤلماً.

(٢) المقصود المجتمع البشري.

(٣) تُقصِيك: تُبعِدُك.

بِتَعاسَتِها وشَقائِها. سوف أموتُ وأترُكُه يَتيماً بين صِبيانِ الأزقّةِ، وَحيداً في هذهِ الحَياةِ القاسِيةِ، غيرَ تاركةٍ له سِوى ذِكرى هَائِلَةٍ تُخجِلُه إنْ كانَ جَباناً خامِلاً وتُهَيّجُ دَمَه إنْ كانَ شُجاعاً عَادِلاً. فإنْ حَفِظَتْهُ السماءُ وشَبَّ رَجُلاً قَوِيّاً ساعَدَ السماءَ على الذي جَنَى عَليهِ وعلى أُمّهِ، وإن ماتَ وتملّصَ من شبكةِ السِنينَ وَجَدَني مُترقّبةً قدومَهُ هناك حيثُ النورُ والراحَة!

فقلتُ وقَلبي يُوحي إليّ: «لَستِ كالأبرَصِ يا مَرتا وإن سَكنتِ بينَ القُبُور، ولستِ دَنِسَةً وإن وَضَعَتْكِ الحَياةُ بينَ أيدي الدَنِسين[1]. إنَّ أدرانَ[2] الجَسَدِ لا تلامِسُ النفسَ النقيّةَ، والثلوجَ المُتراكِمةَ لا تُميتُ البُذُورَ الحَيّةَ. وما هذه الحياةُ سِوى بَيدرِ أحزانٍ تُدرَسُ عليه أغمارُ النُفُوسِ قَبل أن تُعطِي غَلّتَها. ولكن وَيلٌ للسنابلِ المَترُوكةِ خارجَ البَيدر، لأنَّ نملَ الأرضِ يَحمِلُها وطيورَ السَماءِ تلتَقِطُها، فلا تدخُلُ

---

(١) دَنِسين: جمع دِنس، والصواب: أدناس ومدانيس.

(٢) أدران: ج دَرَن وهو الوسخ.

آهراء[1] ربّ الحقل[2].

أنتِ مظلومةٌ يا مَرتا وظالمُكِ هو ابنُ القُصُورِ، ذو المَالِ الكَثيرِ والنفسِ الصَغيرةِ. أنتِ مَظلومةٌ ومُحتقَرةٌ، وخيرٌ للإنسان أن يكونَ مَظلوماً من أن يكونَ ظالماً، وأخلقُ به أن يكونَ شهيدَ ضُعفِ الغريزةِ الترابيّةِ من أن يكونَ قَوياً ساحقاً بمَقابِضِهِ زهورَ الحياةِ، مُشوّهاً بمُيُولِهِ مَحاسِنَ العَواطِف.

النفسُ يا مرتا هي حَلْقَةٌ ذهبيّةٌ مَفروطَةٌ من سِلسِلَةِ الألُوهيّةِ، فقد تَصهَرُ النارُ الحاميةُ هذه الحَلْقةَ وتُغيّرُ صورتَها وتَمحُو جمالَ استِدارَتِها، لكنّها لا تُحيلُ ذهبَها إلى مَادّةٍ أُخرى، بل تَزيدُه لمَعاناً. ولكن ويلٌ للهَشيمِ إذ تأتي النارُ وتلتَهِمُه وتَجْعَلُهُ رَماداً ثمَّ تَهُبُّ الرياحُ وتُذرِيه على وَجه الصَحراء[3]...

---

(١) أهراء: مخازن، مواضع تُجمع فيها حبوبُ الغَلّةِ من قمحٍ وغيره.

(٢) إشارة إلى قول المسيح في مثل الزارع وتفسيره (متى ١٣: ١-٢١).

(٣) الألمُ ضرورةٌ لصَقْل إنسانيّةِ الإنسان، ولا ترهفُ النفسُ إلا بالألم.

إي مَرتا، أنتِ زَهرةٌ مَسحُوقةٌ تحتَ أقدامِ الحَيوانِ المُختَبىءِ في الهيَاكلِ البَشريّة. قد داسَتْكِ تلكَ النِعالُ بقَساوَة، لكنَّها لم تُخفِ عِطرَكِ المُتصاعِدَ مع نُواحِ[1] الأراملِ وصُراخِ اليَتامَى وتَنهيداتِ الفقراءِ نحوَ السَماءِ مَصدرِ العَدلِ والرَحمة. تَعَزَّيْ يا مَرتا بكَوْنِكِ زَهرةً مَسحوقةً ولستِ قَدَماً سَاحِقَةً!»[2]

كنت أتكلَّمُ وهي مُصغِيةٌ[3] وقد أنارَتِ التعزيةُ وجهَها المُصفرَّ مثلَما تُنيرُ أشعَّةُ المَغْربِ اللطيفةُ خَلايا الغُيومِ. ثمّ أومأتْ إليَّ أنِ اجلِسْ على جَانبِ السرير، ففعلتُ مُسائِلاً مَلامِحَها المُتكلّمةَ عن مُخَبآتِ نفسِها الحَزينة. ملامحَ مَنْ عَرَفَ أنّه مائتٌ. ملامحَ صَبيّةٍ في رَبيعِ العُمرِ قد شَعَرَتْ بوَقْعِ أقدَامِ المَوتِ حولَ فِراشِها البالي. مَلامِحَ امرأةٍ مَتروكةٍ كانت بالأمسِ بينَ أوديةِ

---

(١) نواح: بكاء شديد.

(٢) إذا كان لا بدَّ من خيار بين أن يكون الإنسانُ ظالماً أو يكون مظلوماً، فخيرٌ له أن يكون مظلوماً. موقف سوف يتبدَّل في «الأرواح المتمرِّدة» عندما نرى خليلاً يتمرَّد على الظالمين ويقف في مواجهتهم وجموع القرية تؤيِّده وتفعل فعله.

(٣) يجدر إضافة «إليَّ» ليستقيمَ المعنى.

لبنانَ الجَميلةِ مَملوءَةً حياةً وقُوَّةً، فصارَتِ اليومَ مَهزولةً تترقَّبُ الانعتاقَ من قُيودِ الحَياةِ. وبعدَ سَكينةٍ مُؤثِّرةٍ جَمَعَتْ فَضَلاتِ قُواها وقالَتْ ودُموعُها تَتكلَّمُ مَعها ونفسُها تَتصاعَدُ مع أنفاسِها:

نَعم أنا مَظلومةٌ، أنا شهيدةُ الحيوانِ المُختَبِئِ في الإنسانِ، أنا زهرةٌ مَسحوقةٌ تحتَ الأقدامِ. كنتُ جالسةً على حَافَّةِ ذلك اليَنبوعِ عندَما مرَّ رَاكباً.. قد خَاطَبَني بلُطفٍ ورقّةٍ وقال إنّي جَميلةٌ وإنّه أحبَّني فلا يَترُكُني، وإنَّ البرّيّةَ مَملوءةٌ وَحشةً والأوديةَ هي مَساكنُ الطُيورِ وبَناتِ آوى... ثمَّ ألوى عَليَّ وضَمَّني إلى صَدرِه وقَبَّلَني، وكنتُ لم أذُقْ حتى تلكَ السّاعةِ طَعْمَ القُبلةِ لأنّي كنتُ يَتيمةً مَتروكةً. أردَفني خَلفَهُ[1] على ظَهرِ الجَوادِ وجاءَ بي إلى بَيتٍ جَميلٍ مُنفَردٍ. ثمَّ أتى بالمَلابِسِ الحَريريَّةِ والعُطورِ الزَكيّةِ والمَآكلِ اللَذيذةِ والمَشارِبِ الطَيّبةِ... فعلَ كُلَّ ذلك مُبتَسِماً سَاتِراً بشاعَةَ مُيولِهِ وحَيوانيّةَ

(١) أردف: أركب خلفه، فلا حاجة بالتالي إلى «خلفه» بعد «أردف».

مَرامِهِ[١] بالكَلام اللطيفِ والإشاراتِ المُستَحَبَّةِ...

وبعدَ أن أشبَعَ شَهواتِهِ من جَسَدي وأثقلَ بالذُلِّ نفسي غَادَرَني تارِكاً في أحشَائي شُعلةً حَيَّةً مُلتهبةً تَغذَّتْ من كَبِدِي ونَمت ثمّ خَرَجَتْ إلى هذه الظُلمَةِ من بين دُخانِ الأوجَاع ومَرَارةِ العَويل... وهكذا قَسمتُ حَياتي إلى شَطرَيْنِ: شطرٍ ضَعيفٍ مُتألم، وشَطرٍ صَغيرٍ يصرُخُ في هُدُوء الليلِ طَالباً الرُجُوعَ إلى الفَضَاءِ الوَاسِع. في ذلك البَيتِ المُنفردِ تركَني الظَلومُ ورَضيعي نُقاسِي مَضَضَ الجُوعِ والبَرد والوَحدَةِ، لا معينَ لنا غيرُ البُكاء والنَحيبِ، ولا سميرَ سِوى الخَوفِ والهَواجس[٢]...

وعلمَ رفاقُه بمكاني وعَرَفُوا بعَوَزِي[٣] وضُعفي، فجاءَ الواحدُ بعدَ الآخرِ وكُلٌّ يَبتَغي ابتياعَ العِرضِ[٤]

---

(١) مرامه: مقصده، بغيته، مراده.

(٢) الظلوم: الظالم؛ نقاسي: نعاني، نتحمَّل الألم؛ مضض الجوع: ألمه؛ لا معين لنا: لا مساعد لنا؛ لا سميرَ: لا مُسلي...

(٣) عَوَزي: حاجتي.

(٤) العِرض: الشرف.

بالمَال، وإعطاءَ الخبزِ لقاءَ شرفِ الجسدِ... آه كم قبضتُ على رُوحي بيَدي لتقديمِها للأبديَّةِ، ثمّ أفلتُّها لأنّها لم تكُن لي وَحدِي، فشريكي بها كانَ وَلَدِي الذي أبعَدَتْهُ السَماءُ عَنها إلى هذهِ الحَياة، مثلَما أقصَتْني عنِ الحياةِ وألقَتْني في أعماقِ هذه الهَاوية...
والآنَ ها هي السَاعَةُ قد دَنَتْ وعَريسي الموتُ قد جاءَ بعدَ هِجْرَانِه ليقودَني إلى مَضجَعِهِ النَاعِم!

وبعدَ سَكينةٍ عَميقةٍ تُشابِهُ مَسَّ الأرواحِ المُتطايرَةِ، رفعَتْ عَينَيها المَحجُوبَتَيْنِ بظِلِّ المَنيَةِ وقالت بُهدوء:

ـ أيّها العدلُ الخَفِيُّ، الكامِنُ وراءَ هذه الصُوَرِ المُخِيفَةِ، أنتَ أنتَ السَامِعُ عويلَ نفسي المُودِّعَةِ ونداءَ قلبي المُتَهامِلِ، منكَ وحدَكَ أطلبُ وإليكَ أتضرَّعُ، فارحَمْني وارعَ بيُمناكَ وَلَدي، وتَسلَّمْ بيُسْرَاكَ رُوحي!

وخارَتْ قُواها وضَعُفَتْ تَنهُّدَاتُها، ونظرَتْ إلى ابنِها نظرةَ حُزنٍ وحُنوّ، ثمّ مَيَّلَتْ عينَيها ببطءٍ وبصَوتٍ يكادُ يكونُ سَكينةً قالت: «أبانا الذي في

السَمَواتِ... ليتقدَّسِ اسمُكَ... ليأتِ ملكوتُكَ... لِتَكُنْ مشيئتُكَ كما في السماءِ كذلكَ على الأرضِ. اغفِرْ لنا ذُنُوبَنا».

وانقطَعَ صوتُها، وبَقِيَتْ شَفَتَاها مُتحرِّكَتَيْنِ هُنيهةً، وبوقُوفِهما هَمَدَتْ[1] كلُّ حركةٍ في جَسَدِها. ثمّ اختلجَتْ وتأوّهَتْ وابيضَّ وجهُها وفاضَتْ روحُها. وظلَّتْ عيناها مُحدِّقتَيْنِ إلى ما لا يُرى.

عندما جَاءَ الفجرُ وُضِعَتْ جُثّةُ مَرتا البانيّةِ في تابوتٍ خَشبيٍّ، وحُمِلَتْ على كَتفَي فقيرَيْنِ ودُفِنَتْ في حَقلٍ مَهْجُورٍ بعيدٍ عن المَدينة. وقد رفضَ الكُهّانُ الصلاةَ على بَقاياها ولم يَقبَلُوا أن ترتاحَ عظامُها في الجَبّانَةِ[2] حيثُ الصليبُ يَخْفِرُ[3] القبورَ، ولم يُشيِّعْها[4] إلى تلكَ الحُفرةِ البَعيدةِ غيرُ ابنِها وفتىً آخرَ كانَتْ مصائبُ هذه الحياةِ قد علّمَتْه الشفقةَ.

---

(١) همدت: سَكَنَتْ، توقَّفَتْ عن الحراك.

(٢) الجبّانة: حيث يُقبَرُ (يُدفَنُ) الأموات.

(٣) يخفر: يحرس، يرعى، يحمي.

(٤) لم يشيِّعها: لم يرافقها في رحلتها الأخيرة إلى المقبرة.

يوحنا المجنون

١

في أيّامِ الصَيفِ كان يُوحنّا يَسيرُ كُلَّ صَباحٍ إلى الحَقلِ سَائِقاً ثِيرَانَه وعُجُولَه، حَامِلاً مِحرَاثَهُ على كَتِفَيْه، مُصغِياً لتَغارِيدِ الشَحارِيرِ وحَفيفِ أوراقِ الأغصَانِ. وعندَ الظهيرةِ كانَ يقتربُ من السَاقيةِ المتراكِضَةِ بينَ مُنخَفَضاتِ تلك المُروجِ الخَضراءِ ويأكلُ زادَه تارِكاً عَلى الأعشابِ ما بَقِيَ مِنَ الخُبزِ للعصَافير. وفي المَساءِ عندَما يَنتزِعُ المَغربُ دقائقَ النُورِ من الفَضَاءِ، كانَ يعودُ إلى البَيتِ الحَقِيرِ المُشرِفِ على القُرَى والمَزَارِعِ في شَمالِ لُبنَان، ويَجلِسُ بسكَينةٍ مع وَالدَيْه الشَيْخَيْنِ مُصغِياً لأحادِيثِهما[1] المَملوءَةِ بأخبارِ الأيّامِ شَاعِراً بدُنُوِّ النُعاسِ والرَاحَةِ مَعاً.

(١) يُقال: أصغى إلى... لذلك كان من الأصوب القول: =

وفي أيّام الشِتاءِ كانَ يتّكِىءُ مُستَدفِئاً بقُربِ النارِ، سَامِعاً تأوُّهَ الأرياحِ ونَدْبَ العَناصِرِ، مُفكِّراً بكَيفيَّةِ تَتَابُعِ الفُصُولِ، نَاظِراً مِنَ الكُوَّةِ الصَغيرةِ نحوَ الأوديةِ المُكتَسِيَةِ بالثُلوجِ، والأشجَارِ العَاريةِ من الأوراقِ كأنّها جَماعَةٌ من الفقراءِ تُرِكُوا خَارِجاً بينَ أظفارِ البَردِ القَارسِ والرِيَاحِ الشَديدَة.

وفي اللّيالي الطَويلةِ كانَ يَبقى سَاهِراً حتى ينامَ والدُه ثمَّ يَفتَحُ الخزانَةَ الخَشبيّةَ ويأتي بكتابِ العَهدِ الجدَيد، ويَقرأُ منه سرّاً على نُورِ مِسرَجةٍ ضَعيفةٍ، مَتلَفّتاً بتَحَذُّرٍ بينَ الآونةِ والأُخرَى نحوَ والدِهِ النائِم الذي مَنَعَهُ عَن تِلاوةِ ذلكَ الكتابِ، لأنَّ الكهنةَ يَنْهَوْنَ بُسَطاءَ القَلبِ عَنِ استِطلاعِ خَفايا تَعاليمِ يَسوعَ ويَحرِمُونَهم من«نِعَمِ الكنيسة» إذا فَعَلُوا.

هكذا صَرَفَ يوحَنا شَبيبتَهُ بين الحَقلِ المَملُوءِ بالمَحَاسِنِ والعَجَائِبِ وكتابِ يَسُوعَ المُفعَمِ بالنُورِ والروحِ. كانَ سَكُوتاً كثيرَ التأمُّلاتِ يُصغي لأحاديثِ

= مصغياً إلى تغاريد الشحارير، و: مصغياً إلى أحاديثهما.

وَالدَيْهِ ولا يُجيبُ بكَلِمَةٍ، ويلتقي بأترابِهِ الفتيانِ ويُجالِسُهم صامِتاً ناظِراً إلى البَعيدِ حيثُ يلتقي الشفَقُ بازرقاقِ السَماءِ. وإذا ما ذَهَبَ إلى الكَنيسةِ عادَ مُكتئباً، لأنَّ التعاليمَ التي يَسمَعُها مِن على المَنابِرِ والمَذابح هي غيرُ التي يَقرأُها في الإنجيلِ، وحَياةُ المُؤمنين مع رُؤسائِهم هيَ غيرُ الحَياةِ الجَميلةِ التي تَكَلَّم عَنها يَسوعُ الناصري.

***

جاءَ الربيعُ وَاضمَحلَّتِ الثُلُوجُ في الحُقُولِ والمُروجِ، وأصبَحَتْ بَقاياها في أعالي الجِبالِ تذوبُ وتَسيرُ جداولَ في مُنعطفاتِ الأودِيةِ، وتجتَمِعُ أنهُراً غَزيرةً تتكلَّمُ بهَديرِها عَن يقظَةِ الطَبيعةِ، فأزهَرَتْ أشجارُ اللَوزِ والتُفّاحِ، وأورَقَتْ قُضبانُ الحَوْرِ والصَفْصَافِ، وأنبتَتِ الرَوابي أعشابَها وأزهارَها، فتَعِبَ يُوحَنا من الحَياةِ بجانِبِ المَواقِدِ، وعَرَفَ أن عُجُولَهُ قد مَلَّتْ ضِيقَ المَرابِضِ، واشتاقَتْ إلى المَراعِي الخَضراءِ، لأنَّ مَخازِنَ التبنِ قد شَحَّتْ، وزنابِلَ الشَعيرِ قد نَفِدَتْ. فجاءَ وَحلَّها من مَعالِفِها

وسارَ أمامَها إلى البَرّيّةِ ساتِراً بعَباءتِه كتابَ العَهدِ الجَديدِ كَيلا يراهُ أحدٌ، حتى بلغَ المَرجَةَ المُنبَسِطَةَ على كَتفِ الوَادِي بقُربِ حُقُولِ الدَيرِ القائمِ كالبُرجِ الهائلِ بَينَ تلكَ الهِضَابِ[1]، فتفرّقَتْ عُجُولُه مُرتعيةً الأعشابَ، وجلسَ مُستنِداً إلى صَخرةٍ يتأمّلُ تارةً بجَمَالِ الوَادي وطَوراً بسُطُورِ كتابِهِ المُتكلِّمَةِ عن مَلَكُوتِ السَمَواتِ.

كان ذلكَ النهارُ من أواخرِ أيّامِ الصَومِ، وسكّانُ تلك القُرى المُنقَطِعُونَ عن اللُحومِ، أصبَحُوا يَترقّبونَ بفَضَلاتِ الصَبرِ مَجيءَ عِيدِ الفِصحِ. أمّا يُوحنّا، فمثلُ جميعِ المزارعين الفقراء لم يكُن يُفرّقُ بين أيّامِ الصيامِ وغيرِها، فالعمرُ كلُّه كانَ صَوماً طَويلاً عندَه، وقُوتُه لم يتجاوَزْ قطُّ الخبزَ المعجونَ بعرَقِ الجَبينِ، والثمارَ المُبتاعَةَ بدَمِ القَلبِ، فالانقطاعُ عن اللُحُومِ والمآكلِ الشَهيّةِ كانَ طَبيعياً. مُشتَهَياتُ الصَومِ لم تَكُن في جَسدِه بل في عَواطفِهِ، لأنها تعيدُ إلى

(١) يقصد دير إليشاع النبي، يقع شمال لبنان وهو ملكٌ للرُهبان الحلبيين سابقاً، المريميين حالياً.

نفَسِه ذِكرى مأساة «ابنِ البشرِ» ونهايةَ حَياتِهِ على الأرض.

كانتِ العصافيرُ ترفرفُ مُتَناجيةً حولَ يُوحنّا، وأسرابُ الحَمامِ تتطايرُ مُسرِعةً، والزهورُ تتمايلُ مع النَسيمِ كأنّها تَتَحَمَّمُ[1] بأشعّةِ الشَمس، وهو يقرأُ في كتابِهِ بتَمَعُّنٍ[2] ثمّ يرفَعُ رأسَه ويرَى قُبَبَ الكنائسِ في المُدُنِ والقُرى المَنثورةِ على جَانِبَي الوادي، ويَسمَعُ طنينَ أجراسِها فيُغمِضُ عَينَيهِ وتَسبَحُ نفسُه فوقَ أشلاءِ الأجيالِ إلى أورَشليمَ القديمةِ مُتَّبِعَةً أقدامَ يسوعَ في الشَوارعِ سَائِلةً العابرينَ عنه فيُجيبُونَها قائلين: ـ هنا شَفَى العُميانَ وأقامَ المُقْعَدِينَ. وهناكَ ضَفَرُوا له إكليلاً من الشَوكِ ووَضَعُوه على رَأسه ـ في هذا الرُواقِ وَقَفَ يُكلّمُ الجُمُوعَ بالأمثالِ، وفي ذلك القَصرِ كتَّفُوهُ على العَمُودِ وَبصَقُوا على وَجهِهِ وجَلَدُوه ـ في هذا الشارعِ

---

(١) المقصود: تستحمّ. وقد دافع نعيمه عن هذا الخطأ في مقاله «نقيق الضفادع» مستغرباً كيف يجوز للجاهلي أن يشتق مفردات ولا يجوز لابن هذا العصر أن يحذو حذوه.

(٢) بتمعُّن: بتروٍّ وتعمُّق. وتمعّن في الأمر: روّى فيه.

غَفَر للزانيةِ خَطاياها، وفي ذاكَ وَقَعَ على الأرضِ تحتَ أثقالِ صَليبِهِ.

ومرّتِ الساعةُ ويوحنّا يتألّمُ مع الإله الإنسانِ بالجَسدِ، ويتمجّدُ معَهُ بالرُوحِ، حتى إذا ما انتصَبَ النهارُ قامَ من مَكانِهِ ونَظَر حَولَهُ فلم يرَ عُجُولَه، فمَشَى مُلتَفِتاً إلى كُلّ ناحيةٍ مُستغرِباً اختفاءَها في تلك المُروجِ السَهلة. ولما بلغَ الطريقَ المُنْحنيةَ بينَ الحُقُولِ انحناءَ خُطُوطِ الكَفِّ رأى عَن بُعدٍ رَجُلاً بمَلابسَ سوداءَ واقِفاً بينَ البَساتينِ، فأسرَعَ نحوَه، ولمّا اقتربَ منهُ وعَرفَ أنَه أحدُ رُهبانِ الدَيرِ، حيّاهُ بحَنْيِ رأسِهِ ثمّ سألَهُ قائِلاً: «هل رأيتَ عُجُولاً سائرةً بينَ هذه البساتينِ يا أبتاه؟» فنظرَ إليه الراهبُ مُتكلّفاً إخفاءَ حَنَقِهِ[1] وأجابَ بخُبثٍ: «نعم رأيتُها فهي هناكَ، تَعالَ وانظُرْها».

فسارَ يُوحَنّا وراءَ الراهبِ حتَّى بلغَا الدَيرَ، فإذا بالعُجُولِ ضمنَ حَظِيرَةٍ واسعةٍ مُوثَقَةٍ بالحِبالِ يَخفرُها

---

(١) حنقه: غضبه.

أحدُ الرُّهبانِ وفي يَدِهِ نَبُّوتٌ[1] يَجلِدُها به كيفَما تَحرَّكت. وإذ هَمَّ يُوحَنّا ليقودَها أمسَكَ الراهبُ بعَباءَتِهِ والتَفَتَ نحوَ رُواقِ الدَيرِ وصَرَخَ بأعلى صَوتِه: «هوذا الراعِي المجرمُ قد قبضتُ عَليه».

فهَرولَ القُسُسُ والرُهبانُ من كُلِّ ناحيةٍ يَتقدَّمُهُم الرئيسُ وهو رجلٌ يمتازُ عن رِفاقِهِ بنَحافَةِ أثوابِهِ وانقِبَاضِ سَحنَتِه[2]، وأحَاطُوا بيُوحَنّا كالجُنودِ المُتسابقةِ على الفَريسةِ، فنظرَ يُوحَنّا إلى الرئيسِ وقال بهُدُوء: «ماذا فعلتُ لأكونَ مُجرِماً، ولماذا قبضتُم عليّ؟»

فأجابَهُ الرئيسُ وقد بانَتِ القساوةُ على وَجهِهِ الغَضُوب، وبصَوتٍ خَشِنٍ أشبَهَ بصريرِ المَناشيرِ[3] قال: «قد ارتعَتْ عُجولُكَ زَرْعَ الدَيرِ وقضَمَتْ قُضبانَ

---

(١) النبُّوت: الفرع النابت من الشجرة؛ ويطلق على العصا الطويلة المستوية.

(٢) السَحنة: الهيئة.

(٣) المناشير: ج منشار وهو آلة تُستعمل في قَطع الأخشاب والحطب.

كُرومِهِ، فقبَضْنا عليكَ لأن الرّاعي هو المَسؤولُ عمّا تُخرِّبُه مَواشِيه».

فقال يُوحَنّا مُستعطفاً: «هي بهائمُ لا عقلَ لها يا أبتاهُ، وأنا فقيرٌ لا أملِكُ غيرَ قُوَى سَاعِدَيَّ وهذه العُجُولَ، فاترُكني أقودُها وأسيرُ وَاعِداً إيّاكَ بأن لا أجيءَ إلى هذه المُرُوجِ مَرّةً أُخرى».

فقالَ الرئيسُ وقد تقدّمَ قليلاً إلى الأمامِ ورفَعَ يدَه نحوَ السماء: «إن الله قد وضَعَنا هٰهنا ووَكَلَ إلينا حِمايةَ أراضي مُختاره إليشاع العَظيم، فنحنُ نُحافِظُ عَليها ليلاً ونَهاراً بكلِّ قُوانا لأنّها مُقدّسَة، وهي كالنّارِ تَحرُقُ كُلَّ مَنْ يقتربُ منها، فإذا امتنعْتَ عن مُحاسَبةِ الدَيرِ انقلبَتِ الأعشابُ في أجوافِ عُجُولِكَ سُمُوماً آكِلَة، ولكن ليسَ مِن سبيلٍ إلى الامتناعِ لأنّنا نُبقي بهائِمَكَ في حَظيرَتِنا حتّى تَفِيَ آخرَ فِلسٍ عَليك».

وهَمَّ الرئيسُ بالذَهابِ فَأَوقَفَهُ يُوحَنّا، وقال مُتذلّلاً مُتوسّلاً: «أستَحلِفُكَ، يا سيّدي، بهذهِ الأيامِ المقدّسةِ، التي تألّم فيها يسوعُ وبكَتْ لأحزانِها مريمُ،

أن تَتركَني أذهبُ بعُجُولي. لا تكُن قاسِيَ القلبِ عَليَّ، فأنا فقيرٌ مسكينٌ والديرُ غَنِيٌّ عَظيم، فهو يُسامِحُ تَهامُلي[1] ويَرحَمُ شَيخوخةَ وَالدي».

فالتفَتَ إليه الرئيسُ وقال بِهُزءٍ: «لا يُسامِحُكَ الديرُ بمِثقالِ ذَرَّةٍ أيّها الجَاهِلُ، فَقيراً كُنتَ أم غَنيًّا، فلا تستَحْلِفْني بالأشياءِ المُقدَّسةِ لأنّنا أعرَفُ منك بأسرَارِها وخَفَاياها، وإن شئتَ أن تقُودَ عُجولَكَ من هذه المَرابِض فَافْتَدِهَا[2] بثلاثةِ دنانيرَ لقاءَ ما التهمَتْ مِنَ الزرعِ».

فقال يُوحَنّا بصوتٍ مُختَنِقٍ: «إنّني لا أملِكُ بارةً[3] واحدةً يا أبتَاه. فأَشفِقْ عَليَّ وارحَمْ فَقري».

---

(١) المقصود: إهمالي.

(٢) افتدِها: ادفعْ فِديةً لقاء الضرر الذي أحدثت لنعيدها إليك؛ المرابض: المواضع التي تبرك (تقعد) فيها

(٣) بارة: وَحدة من العِملة (المال المتداول) كانت رائجة أيام الأتراك. وهذه الوحدات كانت تسمّى: التك، البارة، المتليك، المجيدية.

فأجابَ الرئيسُ بعد أن مَشَّطَ لِحيَتَهُ الكَثيفةَ بِأصَابِعِه: «اذهَبْ وَبِعْ قِسماً من حَقلِكَ وعُدْ بثلاثةِ دَنانيرَ، فخيرٌ لكَ أن تَدخُلَ السماءَ بلا حَقلٍ من أن تَكتَسِبَ غَضَبَ إليشاعَ العظيمِ بِاحتِجَاجِكَ أمامَ مَذبَحِهِ، وتهبِطَ في الآخرةِ إلى الجَحيمِ حيثُ النَّارُ المؤبَّدة».

فسكتَ يُوحَنا دَقيقةً وقد أبرقَتْ عَيناهُ وانبَسَطَ مُحَيَّاهُ وتبدَّلَتْ لَوائحُ[1] الاستِرحَامِ بمَلامِحِ القُوّةِ والإرادة، فقالَ بصَوتٍ تَمتزِجُ فيه نَغمةُ المَعرفةِ بعَزمِ الشَّبيبة: «هل يبيعُ الفقيرُ حقلَه مَنبتَ خبزِه ومَوردَ حياتِه ليُضِيفَ ثمنَه إلى خَزائِنِ الدَيرِ المُفعَمَةِ[2] بالفِضّةِ والذَهَب؟ أمِنَ العَدلِ أن يَزدادَ الفقيرُ فَقراً ويمُوتَ المِسكينُ جُوعاً كيما يغفِرَ إليشاعُ العَظيمُ ذنوبَ بَهائِمَ جائعة؟»

فقالَ الرئيسُ هَازّاً رأسَه استِكباراً: هكَذا يقولُ

---

(١) لوائحُ: مظاهرُ.

(٢) المفعمة: الملأى.

يسوعُ المسيحُ «مَن له يُعطى ويُزادُ، ومَن ليسَ له يُؤخَذُ منه»[1].

سَمِعَ يُوحَنا هذهِ الكلماتِ فاضطَرَبَ قلبُه في صَدرِه، وكَبُرَتْ نفسُه، وتعالَتْ قامَتُه عَن ذي قَبلُ، كأنَّ الأرضَ قد نَمَتْ تحتَ قَدَميه، فانتشَلَ الانجيلَ من جَيبِهِ كمَا يَستَلُّ الجُنديُّ سيفَه[2] للمُدافعةِ، وصَرَخَ قائلاً:

«هَكذا تَتلاعَبُونَ بتَعليم هذا الكتابِ أيُّها المُراؤون[3]. هكذا تَستَخدِمُونَ أقدسَ ما في الحَياةِ لتَعميمِ شُرورِ الحَياة. فويلٌ لكم إذ يَأتي ابنُ «البشر» ثانيةً ويُخرِّبَ أديرَتَكم ويُلقِي حِجارَتَها في هذا الوادي، مُحرِقاً بالنارِ مَذابِحَكُم ورسُومَكُم وتَماثِيلَكُم! ويلٌ لكم من دِماءِ يسوعَ الزكيّةِ ودموعِ أمِّهِ الطاهرة، إذ تَنقَلِبُ سَيلاً[4] عَليكُم وتَجرُفُكُم إلى أعماقِ

---

(١) متى ٢٥ : ٢٩.

(٢) يَستلُّ سَيفَه: يُخرِجُه من غمده. والغِمد هو بيت السيف.

(٣) المراؤون: المخادعون.

(٤) سيلاً: ماءً جارفة.

الهَاوية! ويلٌ وألفُ ويلٍ لكُم أيُّها الخاضِعُون لأصنام مَطامِعِكُم، السَاتِرُون بالأثوابِ السَوداءِ اسوِدَادَ مَكرُوهَاتِكُم، المُحرِّكُونَ بالصَلاةِ شِفَاهَكُم وقُلوبُكُم جَامدةٌ كالصُخُور، الرَاكِعُون بتَذلُّلٍ أمامَ المَذابِحِ ونفوسُكُم مُتمرِّدَةٌ على الله.

قد قُدتُمُوني بخَبَاثةٍ[1] إلى هذا المَكانِ المملوءِ بآثامِكم، وكمُجرمٍ قَبضتُم عليَّ من أجلِ قَليلٍ من الزَرعِ تَستنبتُهُ الشَمسُ ليَ ولكُم عَلى السَواء، ولمّا استَعْطَفْتُكُم باسمِ يَسوعَ واستَحْلَفْتُكُم بأيّامِ حُزنِه وأوجَاعِه استهزَأتُم بي كأنّي لم أتكَلَّمْ بغَيرِ الحَماقَةِ والجَهالَة.

خُذُوا وابحَثُوا في هذا الكتابِ وأرُوني متَى لم يكُنْ يسوعُ غَفوراً؟ واقرأُوا هذه المأساةَ السَماويّةَ وأَخبِرُوني أينَ تكلَّم بغَيرِ الرَحمةِ والرَأفة، أفي مَوعِظَتِهِ على الجَبَلِ، أم في تَعاليمِه في الهَيكلِ أمامَ مُضطهِدي

---

(١) خباثة: من خَبُث: ضدّ طاب. والمقصود هنا: بخُبثٍ أي بمكر.

تلكَ الزانيةِ المِسكينةِ، أم على الجُلجُلة[1] عندَما بَسَط ذِراعَيْه على الصَليبِ لِيَضُمَّ الجنسَ البَشرِيَّ.

انظُرُوا يا قُساةَ القُلوبِ إلى هذه المُدُنِ والقُرى الفَقيرةِ، ففي مَنازِلِها يتلوَّى المَرضى على أَسِرَّةِ الأوجَاعِ، وفي حُبُوسِها[2] تفنَى أيَامُ البائِسِينَ، وأمامَ أبوابِها يتضرَّعُ المتسوِّلونَ، وعلى طُرُقِها ينامُ الغُرباءُ، وفي مَقابِرِها تَنوحُ الأرامِلُ واليَتامَى، وأنتُم هُهنا تتمتَّعونَ براحَةِ التَواني والكَسَلِ، وتتلذَّذون بثِمارِ الحُقُول وخُمُورِ الكُرومِ. فلم تزُورُوا مَريضاً، ولم تفتَقِدُوا سَجيناً، ولم تُطعِمُوا جَائعاً، ولم تُؤووا غَريباً، ولم تُعَزُّوا حَزيناً[3]. وليتَكُم تكتَفُون بما لديكُم وتقنَعُونَ بما اغتَصَبْتُم من جُدودِنا باحتِيالِكُم، فأنتُم تَمُدُّونَ أيديَكُم كمَا تَمُدُّ الأفاعِي رُؤوسَها، وتقبِضُونَ بشِدَّةٍ على ما وَفَّرَتْهُ الأرمَلَةُ من عَمَلِ يدَيْها وما أبقاهُ الفَلاحُ لأيَامِ شَيخُوخَتِهِ».

(١) الجلجلة: اسم الجبل الذي صُلب عليه السيّد المسيح.

(٢) حبوسها: سجونها.

(٣) إشارة إلى حوار السيّد المسيح مع أهل اليمين وأهل الشمال.

وسكَتَ يُوحَنّا ريثما استرجَع أنفاسَه ثُمَّ رفعَ رأسَه بِفَخْرٍ وقال بهُدوء: «أنتم كُثارٌ هٰهُنا وأنا وَحدي. افعَلُوا بي ما شِئتم، فالذئابُ تفترسُ النعجةَ في ظُلمَةِ اللّيلِ لكنّ آثارَ دمائِها تبقَى على حصباءِ الوادي حتّى يَجيءَ الفجرُ وتَطلُعَ الشمسُ».

كان يُوحنّا يتكلَّمُ وفي صَوتِهِ قُوَّةٌ عَلَوِيَّةٌ توقِفُ في أبدانِ الرُهبانِ الحَرَكَةَ وتُثيرُ في نُفوسِهم الغيظَ والحِدَّةَ، ومِثلَ غِربانٍ جائعةٍ في أقفاصٍ ضَيّقةٍ كانُوا يرتَجِفُون غَضَباً وأسنانُهم تَصرِفُ بشِدَّةٍ مُترقّبينَ من رئيسِهم إشارةً ليُمزِّقُوه[1] تمزيقاً ويَسْحَقُوه سَحْقاً، حتّى إذا ما انتهى من كلامِهِ وسَكَتَ سُكوتَ العاصِفَةِ بعد تكسيرِهَا الأغصانَ المتشامِخَةَ والأنصابَ اليابسَةَ، صرخَ الرئيسُ بهم قائلاً: «اقبضُوا على المُجرمِ الشقيِّ وانزَعُوا منهُ الكتابَ وجُرُّوهُ إلى حُجرةٍ مُظلمَةٍ من الدّير، فمَنْ يجدِّفُ على مُختاري الله لا يُغفرْ له هٰهنا ولا في الأبديّة».

---

(١) دفعاً للالتباس في المعنى لا بد من ذكر يوحنا لأن «يمزِّقوه» عائدة إلى رئيسهم.

فهَجَم الرُّهبانُ على يُوحَنّا هُجومَ الكواسِرِ على الفَريسَةِ وقادُوهُ مكتُوفاً إلى حُجرةٍ ضَيِّقةٍ وأقفَلُوا عَليه بعد أن نَهكُوا جسَدَه بخُشُونَةِ أَكُفِّهِم ورَفْسِ أرجُلِهم.

في تلكَ الغُرفةِ المُظلِمَةِ وَقَفَ يُوحَنّا وِقفَةَ مُنتَصِرٍ توفَّقَ العَدُوُّ لأسرِه، ونظَرَ منَ الكُوّةِ الصَغيرةِ المُطِلَّةِ على الوَادي المَملوءِ بنُورِ النَهار، فتهلَّلَ وجهُهُ وشَعَرَ بلَذَّةٍ رُوحِيَّةٍ تعانِقُ نفسَهُ وطُمأنينَةٍ مُستعذَبَةٍ تَملِكُ عَواطِفَه، فالحُجرةُ الضَيِّقةُ لم تَسجُنْ غيرَ جَسدِه، أمّا نفسُه فكانَتْ حُرَّةً تَتموَّجُ مَع النَسيمِ بينَ الطُلولِ والمُروجِ، وَأيدِي الرُهبانِ التي آلمَتْ أعضاءَهُ لم تَمَسَّ عَواطِفَهُ المُستأمِنَةَ بجِوارِ يَسوعَ النَاصريِّ. والمرءُ لا تُعذِّبُهُ الاضطهاداتُ إذا كان عَادِلاً، ولا تُفنِيهِ المَظالِمُ إذا كان بجَانبِ الحَقّ، فسُقراطُ[1] شَرِبَ السُمَّ

(١) سقراط: فيلسوف يوناني (نحو ٤٧٠ـ ٣٩٩ق. م). أحدث ثورة في الفلسفة بأسلوبه وفكره. اتّهمه أخصامه بالزندقة وحكموا عليه بالإعدام ففضل الموت على الهرب احتراماً لشرائع مدينته. شرب السمّ فمات في سجنه.

مُبتسِماً، وبُولُسُ[١] رَجمَ فَارِحاً[٢]. ولكنْ هو الضميرُ الخَفيُّ نُخالِفُهُ فيوجِعُنا، ونَخُونُه فيقضِي علينا.

وعَلِمَ وَالِدا يُوحَنّا بما جَرَى لوَحيدِهما، فجاءَت أُمُّه إلى الدَّيرِ مُستعينةً بعَصَاها، وترامَتْ على قدمي الرئيسِ تَذرِفُ الدُّموعَ وتُقَبِّلُ يدَيْهِ ليَرحَمَ ابنَها ويَغتفِرَ جَهلَه. فقالَ لها بعدَ أن رَفَعَ عينَيه نحوَ السماءِ كمُترفِّعٍ عن العالميّات[٣]: «نحن نغتفِرُ طيشَ ابنِكِ ونُسامِحُ جُنونَه ولكنَّ للدَّيرِ حُقوقاً مقدَّسةً لا بُدَّ مِن استيفائِها. نحنُ نسامِحُ بتواضُعِنا زَلّاتِ[٤] الناسِ، أمّا إليشاعُ العَظيمُ فلا يسامِحُ ولا يَغفِرُ لمَنْ يُتلِفُونَ[٥] كرومَه ويَرتَعُونَ زَرعه».

---

(١) بولُس: اسمه الأول شاوُل. اهتدى على طريق دمشق نحو سنة ٣٣ وتعمّد على يد حننيا، ثم اختلى في شمال جزيرة العرب مدة ٣ سنوات باشر بعدها تبشير الأمم الوثنية فكان رسولها الممتاز. حُبِس مرتين في القدس وسيق إلى روما حيث قُطع رأسه سنة ٦٨. يُطلق عليه لقب «رسول الأمم».

(٢) المقصود: فَرِحاً.

(٣) العالميّات: الدنيويّات.

(٤) زلّات: سقطات، خطايا.

(٥) يُتلفون: يُهلِكون.

فنظرَتْ إليهِ الوالدةُ والدمعُ ينسكِبُ على وَجنَتَيْها المُتجعِّدَتَيْنِ بأيدي الشيخوخَةِ، ثمّ نزعَتْ قِلادةً[1] فِضِّيَةً من عُنُقِها ووضَعَتْها في يَدِهِ قائلة: «ليس لديَّ غيرُ هذه القِلادةِ يا أبتاه، فهي عَطيَّةُ والدتي يومَ اقتراني، فلْيَقْبَلْها الديرُ كفّارةً عن ذُنوبِ وحيدي».

فأخذَ الرئيسُ القِلادَةَ ووضَعَها في جَيبِهِ ثمّ قالَ ووالدةُ يوحنّا تُقبِّلُ يدَيْه شُكراً وامتناناً: «ويلٌ لهذا الجيلِ، فقد انعكَسَتْ فيه آياتُ الكتابِ وأصبحَ الأبناءُ يأكُلُون الحِصْرِمَ والآباءُ يَضرِسُون[2]. اذهَبي أيَّتُها المرأةُ الصالِحَةُ وصلّي من أجلِ ابنِكِ المَجنونِ لتَشْفِيَهُ السماءُ وتُعيدَ إليه صَوابَه».

وخرج يُوحَنّا من أَسرِهِ ومشَى ببُطءٍ أمامَ عُجُولِهِ بجانبِ أُمِّه المُنحنيةِ على عَصاها تحتَ أثقالِ السِنينَ، ولمّا بَلَغَ الكوخَ قادَ العُجُولَ إلى مَعالِفِها[3] وجَلَسَ

(١) قلادة: ما جُعِلَ في العُنُقِ من الحلِيّ.

(٢) إشارة إلى قولٍ للسيد المسيح.

(٣) معالفها: الأماكن التي يوضع فيها أكل البهائم.

بسَكينةٍ قربَ النافذةِ يتأمّلُ اضمحلالَ نورِ النهارِ، وبعدَ هُنيهةٍ سَمِعَ والدَه يَهمِسُ في أُذُنِ أُمِّهِ هذه الكلماتِ:
«كم عَارضتِني يا سارة عندَما كنتُ أقولُ لكِ إنَّ ولدَنا مُختَلُّ الشعورِ، والآنَ أراكِ لا تَعترِضينَ لأنَّ أعمالَهُ قد حققَتْ كَلامي ورئيسَ الدَيرِ الوَقورَ قد قال لكِ اليومَ ما قلتُه أنا منذُ سنين»

وَظَلَّ يُوحَنا ناظِراً نحوَ المَغربِ حَيثُ الغُيومُ المُتلبِّدَةُ متلوّنةٌ بأشعّةِ الشَمسِ.

٢

جاءَ عيدُ الفِصحِ وتبدَّلَ الانقطاعُ عن المآكِلِ بالإكثارِ مِنَ المُشتَهيَاتِ، وكانَ قد تَمَّ بِناءُ الهيكلِ الجَديدِ المُتعالي بين المَساكِنِ في مَدينة بشرّي كصرحٍ[1] أميرٍ قائمٍ بينَ أكواخِ الرعايا. وكانَ القومُ يترقّبُونَ قُدُومَ أحدِ الأساقفةِ، لتَكريسِه وتَقديسِ مَذابِحِه، ولمّا شَعَرُوا بدُنُوِّهِ خرَجُوا صُفُوفاً صُفُوفاً

(١) صَرْح: قصر.

على الطَريق وأدخلُوه المَدينةَ بين تَهليلِ الفِتيانِ وتَسابيحِ الكَهَنةِ وأصواتِ الصُنُوجِ وطَنينِ الأجراسِ والنَواقِيسِ. ولمّا تَرجّل عَن فَرَسِهِ المُزدانةِ بالسَرْجِ المُزركَشِ واللِجامِ[1] الفِضّيّ، قابَلَهُ الأئِمَةُ والزُعَماءُ بمُستَطابِ الكَلامِ، مُترحْبينَ[2] به بالقَصائِدِ والأناشِيدِ المُصَدَّرَةِ بالمَديحِ والمُذَيَّلَةِ بالتَبجيلِ[3]. حتّى إذا ما بَلَغَ الهَيكلَ الجَديدَ ارتَدَى المَلابِسَ الحَبْرِيَّةَ[4] المُوَشّاةَ بالذَهَبِ، ولَبِسَ التاجَ المُرَصّعَ بالجَواهِرِ، وتَقَلّدَ عَصَا الرِعَايَةِ المُنَمّقَةَ بالنُقُوش البَدِيعَةِ والحِجارَةِ الكَريمَةِ، وطافَ حَولَ الهَيكلِ مُنَغِماً مَعَ الكهنةِ الصَلواتِ والتَقاسِيمَ، وقد تصاعَدَتْ حَولَهُ روائحُ البَخُورِ الطَيّبةُ، وشَعشَعَتِ الشُموعُ الكَثيرةُ.

وكانَ يُوحَنا في تلكَ السَاعةِ وَاقِفاً بينَ الرُعاةِ

---

(١) السَرج: ج سُرُوج: الرَحْل، وهو ما يوضع على ظهر البعير أو الخيل وما شابه وغلبَ استعماله للخيل؛ اللِجام: ما يُجعل في فم الفرس من الحديد مع الحَكَمَتَيْنِ والعِزارَيْنِ والسير.

(٢) المقصود: مُرَحّبِينَ.

(٣) التبجيل: التعظيم، المديح المبالَغ فيه.

(٤) الملابس الحبريّة: الملابس المناسِبة لرتبته الأسقفية.

والزارِعينَ على رُواقٍ مُرتَفِعٍ يَتأمَّلُ بعينَيهِ الحَزينتَينِ هذا المَشهدَ، ويتنهَّدُ بمَرارَةٍ ويتأوَّهُ بغَصَّاتٍ مُوجِعَةٍ إذ يَرى من الجِهَةِ الواحِدَةِ مَلابِسَ حَريريَّةً مُطَرَّزَةً، وأوانيَ ذهبيَّةً مُرصَّعَةً، ومَباخِرَ ومَشاعِلَ فِضِّيَّةً ثَمينةً، ومن الأُخرى جَماعةً من الفُقَراءِ والمَساكِينِ الذين أتَوْا مِنَ القُرى والمَزارِعِ الصَغيرَةِ يُشاهِدُونَ بَهجَةَ هذا الفِصحِ والاحتِفالَ بتكريسِ الكَنيسةِ. منَ الجِهةِ الواحِدَةِ عظمةٌ ترتَدي القَطيفَةَ والأطالِسَ[1]، ومن الأُخرى تعاسةٌ تَلتفُّ بالأطمارِ البَاليةِ[2].

هٰهُنا فئةٌ قويَّةٌ غَنيَّةٌ تمثِّلُ الدِينَ بالتَنغيمِ والتَعزيمِ، وهناكَ شعبٌ ضَعيفٌ مُحتَقَرٌ يفرَحُ سِرًّا بقيامَةِ يسوعَ مِن بينِ الأمواتِ ويُصلِّي بسَكينةٍ هامِساً في مَسامِعِ الأثيرِ تنهيداتٍ حَارَّةً صَادرةً من أعماقِ القُلوبِ الكَسيرةِ. هٰهنا رُؤساءُ وزُعماءُ لهُم من سُلطتِهم حياةٌ أشبَهُ شيءٍ بأشجارِ السَروِ ذاتِ

(١) القطيفة: ج قُطُف وقطائف: دِثارٌ مخمَلٌ يلقيه الرجلُ على نفسه؛ الأطالس: ج أطلس: وهو ثوب من حرير منسوج.

(٢) الأطمار: ج طِمر: الثوب البالي.

الاخضِرَارِ الأبديّ، وهناكَ بُؤساءُ وزارِعُونَ لَهُم من خُضُوعِهِم حياةٌ تُشابِهُ سَفينةً، ربّانُها الموتُ وقد كَسَرَتِ الأمواجُ دَفّتَها، ومزّقتِ الرِياحُ شِراعَها، فأمسَتْ في هُبُوطٍ وصُعُودٍ، بينَ غَضَبِ اللُّجّةِ وهَولِ العَاصفة. هٰهُنا الاستبدادُ القَاسي، وهناكَ الخُضُوعُ الأعمَى. فأيُّهما كانَ مَولِداً للآخَرِ؟ هل الاستبدادُ شجرةٌ قَوِيّةٌ لا تَنبُتُ في غيرِ التُربةِ المُنخفضَةِ، أم هُوَ الخُضُوعُ حَقلٌ مهجورٌ لا تَعيشُ فيه غيرُ الأشواكِ؟

بهٰذه التأمّلاتِ الأليمةِ وهٰذهِ الأفكارِ المُعذّبةِ كانَ يُوحَنّا مَشغُولاً وقد بَكّلَ[1] زَندَيْه على صَدرِه كأنّ حَنجَرَتَهُ قد ضاقَتْ عن أنفاسِهِ فخَافَ أن يتمزّقَ صَدرُه خَناجِرَ ومَنافِذَ. حتّى إذا ما انتهَتْ حفلةُ التكريسِ وهمَّ الشعبُ بالانصرافِ والتفرُّقِ، شَعَرَ بأنّ في الهواءِ رُوحاً تَنتَدِبُهُ واعِظاً عنها، وفي المَجمُوعِ قوّةً تُحرّكُ روحَه وتُوقِفُهُ خطيباً أمامَ السّماءِ والأرضِ أَسرَ إرادَتِهِ، فتقدّمَ إلى طَرَفِ الرُّواقِ ورَفَعَ عَينَيهِ وأشارَ بيدِهِ نحوَ

(١) بَكّلَ تعني خلط، والصواب طوّق أو ضَمّ.

العَلاءِ وبصَوتٍ عَظيمٍ يَستَدعِي المَسَامِعَ ويستَوقِفُ النواظِرَ صَرَخ قائلاً:

انظُرْ يا يسوعُ الناصِريُّ الجالسُ في قلبِ دائرةِ النُورِ الأعلَى. انظُرْ مِن وراءِ القُبّةِ الزَرقاءِ إلى هٰذهِ الأرضِ التي لَبِسَتْ بالأمسِ من عناصِرِها رداءً. انظُرْ أيُها الحَارِسُ الأمينُ، فقَد خنَقَتْ أشواكُ الوَعْرِ[1] أعناقَ الزُهورِ التي أنعَشْتَ بذورَها بعَرَقِ جَبينِكَ. انظُرْ أيُها الرَاعِي الصَالحُ، فقد نَهَشَتْ مخالبُ الوُحوشِ ضلوعَ الحَمَلِ الضَعيفِ الذي حَمَلْتَه على مَنكِبَيْكَ. انظُرْ فدِماؤكَ الزكيّةُ قد غارَتْ في بَطنِ الأرضِ، ودُموعُكَ السَخينةُ قد جَفَّتْ في قُلوبِ البَشرِ، وأنفاسُكَ الحَارّةُ قد تَضَعْضَعَتْ أمامَ رياحِ الصَحراءِ، وأصبَحَ هذا الحقلُ الذي قَدَّسْتَهُ قَدَماكَ ساحَةَ قِتالٍ تَسحَقُ فيها حَوافِرُ الأقوياءِ ضُلُوعَ المُنطرِحينَ، وتنتزِعُ أكُفُّ الظَالِمينَ أرواحَ الضُعَفَاء...

إنَّ صُراخَ البائِسينَ المُتَصاعِدَ من جَوانِبِ هذهِ

---

(١) الوعر: القفر. المكان الصلب.

الظُلمَةِ لا يسمَعُهُ الجَالِسُونَ باسمِكَ على العُرُوشِ، ونُواحَ المَحزُونينَ لا تَعيهِ آذانُ المُتَكلِّمينَ بتعاليمِكَ فوقَ المَنابِرِ. فالخِرافُ التي بعَثْتَها من أجلِ كَلمَةِ الحَياةِ قد انقلبَتْ كواسِرَ تُمزِّقُ بأنيابِها أجنحَةَ الخِرافِ التي ضَمَمْتَها بذراعَيْك، وكلمةُ الحياة التي أنزلْتَها من صَدرِ اللهِ قد توارَتْ في بُطونِ الكُتُبِ وقامَ مَقامَها ضَجيجٌ مُخيفٌ تَرتَعِدُ من هَولِهِ النُفُوسُ.

لقد أقامُوا يا يسوعُ لمَجدِ أسمَائِهِم كنائسَ ومعَابِدَ كَسوْهَا بالحَريرِ المَنسُوجِ والذَهَبِ المُذوَّبِ، وتَركُوا أجسَادَ مُختاريكَ الفُقَراءِ عَاريةً في الأزقةِ البَارِدَة، ومَلأُوا الفَضَاءَ بدُخَانِ البَخُورِ ولَهيبِ الشُمُوعِ، وتركُوا بُطونَ المُؤمنينَ بألُوهِيَّتِكَ خاليةً من الخُبزِ، وأفعَمُوا[1] الهَواءَ بالتَراتيلِ والتَسابيح، فلَم يسمَعُوا نداءَ اليَتامَى وتنهيداتِ الأرامل.

تعالَ ثانيةً يا يسوعُ الحيُّ واطرُدْ باعَةَ الدِينِ من هيَاكِلِكَ، فقد جَعَلُوها مَغاوِرَ تتلوَّى فيها أفَاعِي

(١) أفعموا: ملأوا.

رَوغِهم[(١)] واحتيالِهم. تعالَ وحاسِبْ هؤلاءِ القَياصِرةَ[(٢)]، فقَدِ اغتَصَبُوا من الضُعَفاء ما لَهم وما لله. تعالَ وانظُرِ الكَرمَةَ التي غَرَسَتْها يَمينُك، فقَدْ أكلَتْ جذوعَها الديدانُ، وسحَقَتْ عناقيدَها أقدامُ ابنِ السَبيلِ[(٣)]. تعالَ وانظرِ الذينَ ائتَمَنْتَهُم على السَلامِ، فقد انقَسَمُوا على ذَواتِهم وتخاصَمُوا وتحارَبُوا، ولَم تَكُن أشلاءُ حُروبِهم غيرَ نفوسِنا المَحزونةِ وقلوبِنا المُضنَكَة . . .

في أعيادِهم واحتِفالاتِهم يَرفَعُون أصواتَهم بجَسارَةٍ قائلين: المَجدُ لله في العُلَى وعلى الأرضِ

---

(١) روغهم: مكرهم.

(٢) القياصرة: جمع قيصر، وهو لقب ملوك رومة في القديم، وروسيا في التاريخ الحديث، وقد عمّم جبران مجازاً هذا اللقب على السلاطين.

(٣) كلامٌ مستمَدٌّ مناخُه من آيات انجيلية. انظرْ آياتٍ في الأفاعي (متى ٣: ٧؛ ١٢: ٣٤؛ ٢٣: ٣٣)؛ والآية: «بيتي بيت الصلاة يُدعى..» (متى ٢١: ١٣)؛ والآية: «اعطوا ما لقيصر لقيصر..» (متى ٢٢: ٢١)؛ الآية: «أنا هو كرمة الحق...» (يوحنا ١٥: ١ـ ٣).

السَلامُ وبالنَّاسِ المَسرَّة[1]. فهل يتمجّدُ أبوكَ السَماويُ بأن تلفظَ اسمَه الشفاهُ الأثيمَةُ والألسِنَةُ الكَاذِبَة؟ وهل عَلَى الأرضِ سَلامٌ وأبناءُ الشَقَاءِ في الحُقُول يَفنُون قُواهُم أمامَ وَجهِ الشَمسِ ليُطعِمُوا فَمَ القَويّ ويَملأُوا جَوفَ الظَالم؟ وهل بالنَاسِ مسرَّةٌ والبؤسَاءُ ينظُرونَ بأعينٍ كَسيرَةٍ إلى المَوتِ نِظرَةَ المَغلُوبِ إلى المُنقِذ؟

ما هو السلامُ يا يَسوعُ الحُلو؟ هَل هُو في أعيُنِ الأطفالِ المُتّكِئينَ على صُدُورِ الأُمّهاتِ الجَائعَاتِ في المَنَازلِ المُظلِمَةِ البَارِدَة؟ أم في أجسَادِ المُعْوِزِينَ النَائِمينَ على أسِرَّةٍ حَجَرِيَّةٍ يَتمَنّونُ القُوتَ[2] الذي يَرمي به قُسُسُ الدَيرِ إلى خَنَازِيرِهم المُسَمَّنةِ ولا يَحصُلُون عليه؟

ما هِي المَسَرَّةُ يا يسوعُ الجَميلُ، أبأن يَشتريَ الأميرُ بفَضَلاتِ الفِضَّةِ قُوى الرِجَالِ وشَرَفَ النِساءِ،

---

(١) لوقا (١: ١٤).

(٢) القُوتُ: من قاتَ يقوتُ الرجُلَ: رزقَه وأعطاه القوتَ وعَالَهُ. والقُوتُ: ج أقوات: ما يأكله الإنسانُ ويقتاتُ به.

وبأن نَسكُتَ ونَبقى عَبيداً بالنَفسِ والجَسَدِ لِمَنْ يُدهِشُون أعيُنَنا بلمَعَانِ ذَهَبِ أوسِمَتِهِم وبَريقِ حِجَارَتِهم وأطالِسِ[1] مَلابِسِهم، أَم بأن نَصرُخَ مُتَظَلِّمينَ مُنَدِّدينَ فيَبعَثُوا إلينا بأتبَاعِهِم حامِلينَ عَلَينا بسُيُوفِهِم وسَنابِكِ[2] خُيُولِهِم فتنسحقُ أجسادُ نسائنا وصغارِنا وتَسْكَرُ الأرضُ من مَجَاري دِمَائِنا؟...

امدُدْ يدَكَ يا يسوعُ القويُّ وارحَمْنا لأنَّ يَدَ الظَلومِ قَويّةٌ علَينا، أو أرسِلِ المَوتَ ليَقُودَنا إلى القُبُورِ حيثُ ننامُ براحَةٍ مَخفُورِينَ بِظلِّ صَليبِكَ إلى سَاعَةِ مَجيئِكَ الثاني، لأنَّ الحياةَ ليسَتْ حَياةً عِندَنا، بل هِيَ ظُلمةٌ تتسَابَقُ فيها الأشباحُ الشِرِّيرَة، ووادٍ تَدُبُّ في جَوانِبه الثَعابِينُ المُخيفة. ولا الأيَامُ أيّامٌ عندَنا، بل هيَ أسيافٌ سَنينةٌ يُخفِيها اللَيلُ بين لُحُفِ مَضاجِعِنا ويُشهِرُهَا الصَبَاحُ فوقَ رُؤوسِنا عندَما تقودُنا مَحبّةُ البَقاءِ إلى الحُقُول. ترأَفْ يا يسوعُ بهذِه الجُمُوعِ

(١) أطالس: جمع طيلس. وهو في الأصل كساءٌ أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء.

(٢) سنابك: ج سُنبُك: (كلمة فارسية) طرف حافِر الفرس.

المُنْضَمَّةِ باسمِكَ في يَوْمِ قيامَتِكَ من بينِ الأمواتِ وَارْحَمْ ذُلَّهُم وضُعْفَهُمْ».

كان يُوحَنا يُناجي السَماءَ والشَعبُ حَولَه بينَ مُستَحسِنٍ رَاضٍ ومُستَقبِحٍ غَاضِبٍ. فهذا يصرُخُ: لم يَقُلْ غيرَ الحَقِّ فهو يتكلَّمُ عَنّا أمامَ السَماءِ لأنّنا مَظلُومُون. وذا يقولُ: هو مَسكونٌ يتكلّمُ بلسَان رُوحٍ شِرّيرةٍ. وذاك يقولُ[1]: لم نسمَعْ قَطُّ مثلَ هذا الهَذَيانِ[2] من آبائِنا وجُدُودِنا ولا نَريدُ أن نسمَعَه الآنَ. وآخرُ يَهمِسُ في أُذُنِ قَريبِهِ: أحسَسْتُ بقُشَعْرِيرَةٍ[3] سِحرِيَّةٍ تَهُزُّ قَلبي في دَاخِلي عندَما سمعتُ صَوتَه، فهو يَتكلّمُ بقُوّةٍ غَريبةٍ. وغيرُه يُجيبُ: نَعَمْ ولكنَّ الرؤساءَ أعرَفُ مِنّا باحتياجَاتِنا فمِنَ الخَطإ أنَ نَشُكَّ بِهِم.

---

(١) الأفضل: هذا وذاك وذلك.

(٢) الهذيان: من هَذَى يهذي: تكلَّمَ بغير معقولٍ لمرضٍ أو لغيره، فهو هاذٍ، والكلام غيرُ المعقول هو الهذيان.

(٣) القُشَعْرِيرَة: الاسم من اقشعَرَّ. واقشعَرَّ جلدُه: ارتعد، تقبَّضَ، تخشَّن، تغيَّر لونه، فهو مُقشعِرٌّ. والجمع مُقْشَعِرُّون وقشاعر.

وبينَما هذه الأصواتُ تتَصاعَدُ من كُلِّ ناحيةٍ وتَتآلفُ كهَديرِ الأمواجِ ثُمّ تَضيعُ في الهَواء، جاءَ أحدُ الكَهنةِ وقَبضَ على يُوحَنّا وأسلَمَهُ للشُرطةِ فقادُوه إلى دَار الحاكِم. ولمّا استَنطَقُوه لم يُجِبْ بكَلِمَةٍ لأنّه تَذكّر أن يسوعَ كانَ سَكُوتاً أمامَ مُضطَهِديه، فأنزَلُوه إلى سِجنٍ مُظلمٍ حيثُ نامَ بسَكينةٍ مُتّكِئاً على الحائِطِ الحَجَرِيِّ.

وفي صَباحِ النهارِ التّالي جَاءَ والدُ يُوحَنّا وشَهِدَ أمامَ الحَاكِم بجُنُونِ وَحيدِه قائلاً: «طالمَا سَمِعتُه يَهذِي في وَحدَتِه يا سَيّدي، ويَتكَلّمُ عن أشياءَ غَريبةٍ لا حَقيقةَ لها، فكَمْ سَهِرَ الليالي مُناجِياً السُكونَ بألفاظٍ مَجهُولة، مُنادِياً أخيلةَ الظُلمةِ بأصواتٍ مُخيفةٍ تُقارِنُ تَعازيمَ العَرّافينَ المُشَعْوِذينَ. سَلْ فِتيانَ الحَيِّ، يا سيّدي، فقد جالسُوه وعَرَفُوا انجذابَ عاقِلَتِه إلى عالَمٍ بَعيدٍ، فكانوا يُخاطِبُونَه فلا يُجيبُ، وإنْ تَكلّمَ جَاءَتْ أقوالُه مُلتَبِسَةً[1] لا علاقةَ لها بأحاديثِهم. سَلْ

(١) ملتبسة: مُشكِلة، مختلطة.

أُمِّه فَهي أدرى النّاسِ بانسِلاخِ نفسِه عن المَدارِكِ الحِسيَّةِ، فقَدْ شاهدَتْه مرّاتٍ ناظِراً إلى الأُفُقِ بعينَينِ زُجاجيَّتَينِ جامِدَتَينِ وسَمِعَتْهُ مُتكَلِّماً بشَغَفٍ[1] عن الأشجارِ والجَداوِلِ والزُهُورِ والنُجُوم، مثلَما تتكلّمُ الأطفالُ عن صَغَائرِ الأمورِ. سَلْ رُهبانَ الديرِ فقَدْ خاصَمَهُم بالأمسِ مُحتَقِراً تنسُّكَهم وتَعبُّدَهم، كافِراً بقَداسَةِ معَيشَتِهم. وهو مَجنونٌ يا سَيّدي، ولكنَّه شَفُوقٌ عليَّ وعلى أُمِّه، فهو يَعُولُنا[2] في أيّامِ الشَيخوخَةِ ويَذرِفُ عَرَقَ جَبينِهِ من أجلِ الحُصُول على حَاجَتِنا، فتَرَأَّفْ بِهِ برأفتِكَ بنا، واغتَفِرْ جنونَهُ باعتبارِكَ حنوَّ الوالدَيْن».

أُفرِجَ عن يُوحَنّا، وشاعَ في تلكَ النَواحِي جنونُه، فكان الفِتيانُ يذكرُونَه ساخِرِينَ بأقوالِه، والصَبايَا ينظُرْنَ إليه بأعيُنٍ آسِفَةٍ قائلاتٍ: للسَماءِ شؤونٌ غَريبَةٌ في الإنسانِ، فهيَ قد جَمَعَتْ في هذا الفَتَى بين جَمَالِ الوَجهِ واختِلالِ الشُعُورِ، وقارَنَتْ

---

(١) بشغفٍ: بولَهٍ.

(٢) يعولنا: من عال يعول: وفّر أسبابَ العيش.

بين أشعَّةِ عينَيه اللطيفةِ وظُلمَةِ نفسِه المَرِيضَةِ.

***

بينَ تلكَ المُروجِ والرَوَابي المُوَشَّاةِ بالأعشَابِ والزُهُور، كان يُوحَنّا يَجلِسُ بقُربِ عُجُولِهِ المُنصَرِفَةِ عن مَتَاعِبِ ابنِ آدَمَ بطِيبِ المَرعَى، وينظرُ بعَينَينِ دامِعَتَيْن نَحوَ القُرى والمَزارِعِ المُنتَشِرَةِ عَلى كَتِفَي الوَادي مُرَدِّداً هذهِ الكَلمَاتِ بتَنهيداتٍ عَمِيقَةٍ: أنتُم كثارٌ وأنا وَحدي، فقُولُوا عَنّي ما شِئتُم، وافعَلُوا بي ما أرَدْتم، فالذئابُ تفترسُ النَعجةَ في ظُلمة الليلِ، ولكنَّ آثارَ دِمائِها تَبقَى على حَصبَاءِ الوَادي حتَّى يجيءَ الفجرُ وتطلعَ الشمسُ.



أسئلة

١ ـ كيف أشار جبران إلى وحدة الوجود؟ أعطِ أمثلة؟

٢ ـ ماذا قصد المؤلف برماد الأجيال والنار الخالدة؟ وما علاقة هذا العنوان بالتقمّص؟

٣ ـ ما الفرق بين الأزل والأبد؟

٤ ـ ماذا أراد جبران بقوله: الفاصلة بيني وبيني؟

٥ ـ اشرح ما هي الفوارق بين الذات المقتبسة والذات المعنوية في هذه العبارة: «نسي ذاته المقتبسة والتقى ذاته المعنويّة»؟

٦ ـ كيف عبّر المؤلف عن الحبّ الحقيقيّ في «مرتا البانية»؟

٧ ـ تأثر جبران بأسلوب الإنجيل. أعطِ أمثلة؟

٨ ـ اشتهر جبران بصوره الرمزيّة. اشرح بعض هذه الصور؟

٩ ـ قال جبران: إن الحبّ سبيل الاتحاد، كيف تفسّر هذا القول؟

١٠ - إلى مَ يرمز جبران بالنعجة والذئب والشمس في نهاية «يوحنا المجنون»؟

١١ - في هذا الكتاب تمجيد للطبيعة قارن بين التمجيد هنا والتمجيد في «المواكب»؟

١٢ - اذكر أمثلة على ركاكة أسلوب جبران في التعبير المعقَّد؟

١٣ - «نظر نحو العلاء ومن عينيه الدموع تستدرّ الدموع» هل ترى أن هذه العبارة سليمة. وكيف تعيد كتابتها إن لم تكن صحيحة لغوياً؟

١٤ - ما علاقة عنوان «عرائس المروج» بموضوعات الأقاصيص؟

١٥ - ما هي النعوت التي تضعف طاقة الكلمة التعبيرية؟ اعطِ بعض الأمثلة؟

١٦ - امتاز جبران بأنسنة الأشياء. أين ظهرت هذه الأنسنة وكيف؟

١٧ - قيل: إن جبران يرسم في كتاباته بقدر ما يرسم في لوحاته فهل هذا صحيح؟ أيّد رأيك بالبرهان؟

١٨ - هل ثمة علاقة بين يوحنا المجنون وخليل الكافر في «الأرواح المتمردة»؟

فهرس الكتاب

عرائس المروج